

مفهوم العمارة

إعداد الأستاذ سليم زاوية
جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة

تمهيد:

تعدّ العمارة من أبرز مظاهر ونتائج الحضارة الإنسانية، وهي نتاج حضاري، بل الحضارة التي تُجسّد فكر المجتمع ومعتقداته، وقد اختلفت العمارة من حضارة إلى أخرى بسبب اختلاف أفكارها ومعتقداتها، مما أكسب كل عمارة خصوصياتها التي امتازت بها عن باقي الحضارات.

أن العمارة في حقيقة الأمر هي حلقة الوصل ما بين العلم والفن... وهو الفرع الوحيد من العلوم الإنسانية جمعاء التي تجمع ما بين الفرعين، ومع انتفاء أي من الفرعين في العمل المعماري تنتفي معه صفة العمارة.

والعمارة هي أم الفنون وأولها، وهي التي تضم كل الفنون الأخرى و توفر لها البيئة المناسبة للعمل و الظهور. والعمارة هي أكثر الفنون فائدة للإنسان. ظهرت العمارة في جميع الأديان علاقات روحانية مع مباني مقدسة. ففي الدين الإسلامي نجد علاقة المسلمين بالكعبة بيت الله الحرام و ما تمثله من معاني روحية و دينية. والمسجد الأقصى الذي يحظى بمكانة عالية لدى جميع المسلمين كالقبلة الأولى لهم و المكان الذي أسرى إليه النبي صلى الله عليه و سلم. وبالتالي فالعمارة هي:

-فن وطرق إقامة المنشآت.

-هي نتاج المخطط لعمل واعي.

-هي طريقة للبناء.

-هي مجموع العمل.

1. المعنى اللغوي والاصطلاحي للعمارة:

من الضروري تحديد وتعريف للكلمات المحورية التي نستخدمها في موضوعنا مثل: **العمارة والمعماري وال عمران**. ولنبدأ بكلمة **العمارة** التي تضم كل ما هو حولنا من مباني ومنشآت ومساكن سواء تم بنائها عن طريق متخصصين أم غير متخصصين. وهي تعكس كل ما تمر به المجتمعات من ظروف وإمكانات. **والمعنى اللغوي للعمارة في اللغة العربية هي من الفعل "عمر" والاسم هي العمارة، أما**

الصفة منها فهي العمران. وأصل كلمة **عمّر** معناها في القاموس العربي هي كل ما هو على وجه الأرض من مباني و منشآت و مساكن سواء كانت من إنتاج متخصصون (معماريون أو مهندسون) أم غير متخصصون. وبالتالي فالعمارة كما ذكرنا تضم كل ما هو حولنا و لا يمكن تحديد ما هو عمارة و ما هو ليس عمارة. فكل ما أقامها لإنسان منذ بدء التاريخ من منشآت و مباني و جسور و شوارع و ميادين و ساحات تندرج تحت العمارة بمسميات مختلفة.

وأما الأساس اللاتيني لكلمة **العمارة** فهي: **architecture** التي تتركب من **arch/tect/ture** و تعني (**archi-**) رئيس أو قائد، و (**ecture**) وتعني البناء القائد ، أو "بناء" أو "نجار".

وأن أول من قام بتعريف العمارة في التاريخ، هو **ماركوس فيتروفيوس** الروماني الذي عاش في القرن الأول الميلادي، والذي ترجم أعماله "**هنري واتون**" في القرن السابع عشر، وذلك من خلال مخطوطة عنوانها عشرة كتب في العمارة حيث اعتبرها تحقيق الملائمة والمتانة والجمال في الوقت المناسب وبالتكاليف المناسبة. ويقول فيتروفيوس أن العمارة هي ثلاث أشياء: >>العمارة فن و علم و ... أشياء أخرى << وبالتالي يحق لنا التساؤل هل العمارة فن أم علم " ومن المثير للدهشة استمرار هذا السؤال التقليدي في الظهور واستمرار الجدل حول ماهية العمارة وعلاقتها بالمعارف الإنسانية الأخرى الأدبية و الفنية و العلمية. فعندما ظهرت تسمية العمارة في العالم الغربي بمعناها الحديث في القرن السادس عشر لم يكن هناك انفصال بين الفن و العلم. وكان معماريو تلك الفترة يتفخرون بمعارفهم العلمية و فلسفاتهم وفنونهم و معارفهم العامة المختلفة. وفي أغلب الأحيان كنا نجد المهندس المعماري يمارس مهن أخرى متعددة بل و يمارس البناء بشكل مباشر على عكس ما نجد عليه المعماري في الوقت الحالي.

أما العالم **سين راسموسين** فيعرفها: >>على أنها الفن الوظيفي الذي يحدد الفراغ الذي نعيش فيه والذي يخلق إطارا يحيط بنا.<< أما الرومان فيعتبرونها أم الفنون بعد أن أخرجوها من مثلث العمارة والنحت والرسم لتتربع على عرش العلوم المكانية. و قد أطلق عليها **العلامة ابن خلدون** "صناعة البناء" فيقول: >>هذه الصناعة أول صنائع العمران الحضري وأقدمها وهي معرفة العمل في اتخاذ البيوت والمنازل للسكن والمأوى للأبدان في المدن. وذلك أن الإنسان لما جبل عليه من الفكر في عواقب أحواله لا بد أن يفكر فيما يدفع عنه الأذى من الحر والبرد كاتخاذ البيوت المكتنفة بالسقف والحيطان من سائر جهاتها.<<

وأما المعماري العربي المعاصر **سامي عرفان** فيعرف العمارة على أنها الفن العلمي لإقامة المباني بحيث تتوافر فيها شروط الانتفاع والمتانة والجمال والاقتصاد، وتفي بحاجات الناس المادية والنفسية والروحية الفردية والجماعية وفي حدد أوسع الإمكانيات وبأحسن الوسائل العصر الذي نكن فيه.

فالعمارة تعتمد على فن وعلم، يقوم بها معماريون على صلة بالواقع، وعلى وعي وإدراك بأحوال بيئة الناس وظروف عملهم في عصرهم، وبالتالي فالعمارة تقوم على ثلاثة ركائز هي: **المعماري. الهندسة المعمارية. والفنون.**

المعماري: يعتبر المعماري فنان وفيلسوف بالدرجة الأولى، فهو من المفترض أن يعتمد في أي تصميم على مفاهيم وعناصر تتعلق بهدف وفكرة المشروع المطلوب. وهذا يتطلب ثقافة واسعة وخيال أوسع. لهذا نجد العمارة بحد ذاتها تتسع لتشمل عدة مجالات مختلفة من نواحي المعرفة والعلوم الإنسانية مثل الرياضيات والعلوم والتكنولوجيا والتاريخ والجغرافيا وعلم النفس والسياسة والعلوم الاجتماعية، وبالطبع الفن بصيغته الشاملة. ويجب أيضا الإمام بنواحي ثقافية ومعارف أخرى تبدو بعيدة عن المجال مثل الموسيقى والفلك. هذا بالنسبة لمتطلبات ومفهوم العمارة، أما مجالات العمل فتبدأ من تصميم المدن والتخطيط العمراني بها وتصل حتى تصميم أصغر منضدة بالمنازل وقطع الديكور والأثاث، فالمطلوب من المعماري في مرحلة التصميم وضع تصور كامل ومفصل للمشروع وربطه بالطبيعة والتقاليد والعادات الموجودة بالمنطقة، فالمطلوب من المعماري إيجاد صيغة مناسبة.

الهندسة المعمارية هي التخصص التعليمي الذي يؤهل الطالب للانتماء لمهنة محددة على أن يكون مهندسا. وكان المعماري في الإسلام يطلق عليه المهندس أو الحاسب - أما رئيس المعمارين فيلقب بالأستاذ أو الشيخ أو المعلم تقديراً واحتراماً. وكان المعمارون كالأطباء يدرسون في الجامعات مثل جامعة (بيت الحكمة) التي أنشئت في بغداد سنة 830 م أما مواد الدراسة فتشمل الرياضيات والحساب والجبر وعلم الحيل (أي الميكانيكا) والرسم إلى جانب العمارة والهندسة، هذا إلى جانب العلوم الطبيعية كالفلك والطبيعة والعلوم النظرية كالدين والحكمة .. فكان منهم العلماء والفلاسفة. وهذا الإمام الشامل بالعلم قد ظهر أثره واضحا في المباني والآثار الخالدة التي طبقوا فيها الكثير من العلوم كالضوء والتهوية، وكان المعماري يضع تصميمًا للمبنى على لوحة من الجلد .. وبعد اكتشاف الورق استعملوا ورقا هندسيا عليه مربعات.

ومن أعظم المعماريين المسلمين: عالم الفلك والبصريات ابن الهيثم الذي كان أول من وضع فكرة السد العالي على النيل في أسوان سنة 1000 م وقد كلفه الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي بتنفيذها ووضع تحت أمره السفن وفريقا من المهندسين والفنيين وذهب إلى الموقع الذي اقترحه على النيل حيث أمضى شهوراً في دراسات على الطبيعة ولكنه وجد أن مثل هذا السد الهائل يحتاج إلى إمكانيات تفوق تكنولوجيا عصره فعدل عن تنفيذها ثم بعد اختراع الآليات في التاريخ الحديث شرع المصريون في بناء هذا السد سنة 1961 م أي بعد موت ابن الهيثم بتسعة قرون. وقد حفظ لنا

التاريخ أسماء بعض كبار المهندسين منقوشة على المنشآت الفخمة من ذلك:

ثابت مهندس قصر الحير في سوريا (القرن 8 م)

علي بن جعفر مهندس قصر الزهراء في قرطبة

فتح الدين الذي أنشأ جامع الزيتونة سنة 804.

فن العمارة: تعتمد العمارة على فن وعلم صحيحين. ويقوم بها معماريون على صلة بالواقع، وعلى وعي وإدراك بأحوال بيئة الناس، وظروف عصرهم. وعن علاقة الفن بالعمارة يبين حون روسكان John Ruskin >> بأنها ذلك الفن الذي يرتب وينظم ويزين ويزخرف الصروح التي يقيمها الإنسان لمختلف الاستعمالات. <<

ويقوم فن العمارة على سبعة قيم خاصة بالفن المعماري اسمها روسكان في كتابه، مصابيح العمارة السبع وهي:

التضحية ويقصد بها استعمال مواد ثمينة تقدم كقربان للعمارة خاصة الدينية منها والتذكارية.

الحقيقة التي تعد التعبير المتطابق بين الداخل والخارج للفراغات والمواد المستخدمة.

القوة التي تناسب طرديا مع الحجم والزمن.

الجمال فالطبيعة هي النموذج المثالي للجمال بالنسبة للغة المعماري.

الحياة هي ما يهبه الخيال الإنساني لتلك الجوامد لتصبح ذات معنى.

الذكرى فطالما كان فن العمارة التاريخ الحي للشعوب، فهي ذاكرة حية.

الطاعة نتيجة احترام فن العمارة للظرف والتقاليد البيئية المحيطة والتزامه بها تلبية متطلباتها.

وتظهر العلاقة جلية بين الفن والعمارة في قول أشهر مصمم معماري في التاريخ المعاصر الفرنسي لوكريزييه >> العمارة هي اللعب المتقن الدقيق الرائع بالكتل التي ترى تحت الضوء.<<

ومن خلال الرؤية المتطورة لمفهوم العمارة عبر التاريخ البشري والحضاري، نستخلص بأن العمارة تتركز على ثلاثة أساسيات

رئيسية هي:

المصمم المعماري الذي هو المحور الرئيسي في العملية التصميمية.

الوسط المحيط الذي يتمثل في الطبيعة والظروف الاجتماعية والاقتصادية والثقافية و...

المنتج المعماري الذي يراعي النواحي الإنسانية، ويحقق الوظيفة والمال.

إذن فالعمارة هي منشأة مؤلفة من كتلة وفراغات، وظيفتها استيعاب نشاط إنساني، كالإسكان والعبادة والعمل والدفاع، وشرطها

المتانة والراحة. ابتدأت العمارة في العصر الحجري بدائية، قوامها الحجر الضخم أو الخشب، وكان الهدف إيواء الساكنين وحمايتهم من

العدوان، وإلى جانب الحجر والخشب ظهرت مادة الطين (اللبن) والطين المشوي (الآجر). ومنذ بداية التاريخ أصبحت العمارة فناً

وعلماً، يتطلب دراسة هندسية واهتماماً جمالياً، بدأ ذلك في العمارات الأولى في مصر القديمة وبلاد الرافدين، وظهرت الأساليب

والطرز المعمارية التي تحمل هوية متميزة وجمالية خاصة. لقد كان الهم الأول أن يقيم المعمار الجدران، وعُثِرَ في المربيط (سورية) على

جدران طينية مدعمة بالخشب، تعود إلى الألف السابعة قبل الميلاد، وعثر في أريحا (فلسطين) على جدران حجرية مشدّبة تعود إلى

الألف السادسة قبل الميلاد. والهم الثاني أن يقيم المعمار السقوف، فكانت السقوف في العمارة البدائية مسطحة أو أشبه بالقباب،

ومثالها ما زال واضحاً في قباب البيوت القروية في شمالي سورية، وكانت مادة هذه السقوف الأغصان والطين.

2. شروط قيام العمارة:

إن شروط قيام العمران والعمارة مرهوناً بوجود ثلاثة عناصر رئيسية هي: الساكن (الإنسان) المكان وتقنية البناء. ولما كان كل واحد

يتضمن مجموعة من العناصر الجزئية التي تداخلت وترابطت ببعضها البعض، فتشكلت بنية العمارة والفكر المعماري وهيكلته.

الساكن (الإنسان) هو العنصر الرئيسي في هذه البنية، فمنه انبثقت بعض العناصر، وحوله تمحورت جميعها. فالعمران جاء لتلبية

حاجته الاجتماعية والمادية والنفسية. ونوعية العمران كانت استجابة لتكوينه النفسي ولقدرته على التفاعل مع البيئة ومعطياتها.

المكان: لكل بيئة نوع من العمران الخاص بها. لذلك لابد من مراعاة في اختيار الأماكن للتعمير والبناء سواء في البيئة المدنية أم البدوية عدّة شروط وأسباب منها الطبيعية والصحية والعاطفية...

في هذا الصدد عرض الهمداني نوعين من التفاعل مع البيئة بغرض تطويعها: أحدهما معماري ويتمثل في توجيه المباني باتجاه الرياح كما هو الحال في قصر غمدان وباقي قصور اليمن. والثاني يعني كزراعة المكان لتوفير أسباب المعيشة من الطعام، وكذلك لتلطيف الجو وبناء السدود لتوفير الماء ولتنظيم عملية الري.

لقد اكتسب المكان خصوصية قيمتها من واقع العلاقة الخاصة بين الإنسان والمكان، والتي عادة ما تكون عاطفية وجدانية، أو علاقة انتساب حضاري أو قومي.

تقنية البناء: ارتبط تطور تقنية البناء بعوامل عدة منها التطور الزمني للعصور وتغير الإقليم أو المكان إضافة إلى اختلاف مواد البناء ونوعيتها ومدى صلابتها. ومن خلال تطور تقنيات ومواد البناء عبر العصور نجد أن أهم تقنيات البناء في العصر البيزنطي التي تعتبر امتدادا للعمارة الرومانية ذات الطابع المسيحي والتي أخذت الكثير من تقنيات عمارة الشرق وطورتها إضافة إلى أنها استمرت طيلة العصور العربية.

وأن هناك نوعين من المباني اعتمد **النوع الأول** على الكتل الحجرية المصقولة التي انتشرت في المدن الرومانية البيزنطية أي في الشمال الإفريقي وفي بلاد الشام وفي آسيا الصغرى إضافة إلى أرمينيا وجورجيا.

أما النوع الثاني فاعتمد على القرميد وعلى ديش الحجارة غير المصقولة التي انتشرت في مباني القسطنطينية وفي مدن الساحل الغربي لاسيما الصغرى وفي البلقان وإيطاليا وغيرها من المناطق مشيرا إلى أن هذا النوع ظل مستخدما في غالبية العالم البيزنطي حتى القرن الرابع عشر.

بينما أظهرت مخططات البيوت التي اكتشفت في موقع الجرف الأحمر الذي يقع على ضفاف نهر الفرات في الألفان التاسع والثامن قبل الميلاد ترابطا بين جدران منحنية وأخرى مستقيمة وأساساتها مؤلفة من الحجارة الكلسية الكبيرة فوقها مداميك حجرية كلسية منحوتة على شكل لفائف مطينة بالصلصال.

أما في عصر فجر التاريخ وتحديدًا في موقع جبوبة الكبيرة 3300-3500 قبل الميلاد فقد بني سور المدينة والبيوت السكنية

بالبن ورصفت الشوارع بالحصى وصنع الناس الألواح الفخارية والأواني الحجرية والرخامية والأختام الاسطوانية من الحجارة الكلسية والسوداء الفحمية.

بينما قامت المدن الكبيرة مع ضواحيها في الألف الثالث قبل الميلاد وانتشرت فيها تقنيات مختلفة من البناء منها الطين المزوج بالطين المجفف أو الكلس والجص والرماد والحصى.

وفي الألف الثاني قبل الميلاد بنيت المباني بالحجارة واستخدمت تقنية تدعيمها بالجسور الخشبية ورصفت الأرضيات بالحجارة.

أما في العصور الكلاسيكية فكانت المادة الشائعة في البناء عند الأنباط هي البازلت التي استخدمت تقنيات نحت دقيقة حسبما يقتضيه مكان استخدام تلك الحجارة وفي العصر الأموي تم اعتماد صناعة الفسيفساء وهي عبارة عن فصوص زجاجية تصنع على شكل ألواح ملونة وتقطيعها إلى مكعبات أصغر.

لقد أدى انجراف العالم أعقاب الثورة الصناعية في القرن الماضي وما تبعها من تطور للآلة إلى الاعتماد الكلي على الصناعة في مجال علوم ومواد البناء ، وهذا بدوره أدى إلى الاعتماد على النفط كمصدر للطاقة مما جعل البشر تستنزف هذا المصدر بشكل كبير وتعتمد عليه بشكل رئيسي في تسيير الأمور الحياتية.

وعند نشوء أزمة الطاقة في عام 1973 م من القرن الماضي كانت نقطة تحول في عملية البناء والتصميم حيث بدأت تظهر اتجاهات تهتم بمجال الطاقة في المباني والمحافظة على المصادر الطبيعية، والبيئة ومكافحة التلوث. وكنتيجة لتلك الأزمة فقد نتج عنها عدة توجهات فكرية، منها ميلاد ما يسما باتجاه ما بعد الحداثة كما ظهرت اتجاهات ترفض الصناعة وتنادي بالعودة إلى الطبيعة. واتجاهات تدعم التقنيات الحديثة في العمارة والعمارة المستدامة. وأصبحت تشكل مدارس فكرية تخرج رواد في تلك المجالات.

3. عناصر العمارة

يفكر المعمارون في تصميمهم المبني بلغة الفراغ والسطوح والفتحات. فهم يعتبرون المبنى فراغاً محاطاً بالسطوح، كالجدران والأرضيات والسقوف الداخلية. وتضم الفتحات الأبواب والنوافذ والممرات المعقودة. وتكون مهمة المعمارى الأساسية تشكيل الفراغ بطريقة مناسبة وعملية من خلال ترتيب الفتحات والسطوح. وفي فترات تاريخية مختلفة، اعتبر المعمارون أن بعض الأشكال أجمل من غيرها، فركزوا عليها في تصاميمهم. وقد شملت الأشكال الأكثر شيوعاً المربع والمستطيل والدائرة.

ويجب أن يكون المبنى سائرًا للناظرين، كما يجب أن يوفر للناس الراحة والفاعلية في العمل. وبالإضافة إلى ذلك يجب أن تكون المنشأة مبنية جيدًا بحيث تستطيع المقاومة لزمن طويل دون صيانة مكلفة. ولتصميم مبنى جذاب ذي فاعلية عالية، يجب أن يوازن المعماري بين ثلاثة عناصر رئيسية هي: - الوظيفة - الهيئة - المتانة.

الوظيفة:

يُصمَّم كل مبنى لغرض معين. فالمبنى المصمَّم وظيفيًا سواء أكان منزلًا صغيرًا أم مبنى عملاقًا، يجب أن يلبي تلك الأغراض التي تخدم حاجة مستخدميه بطريقة مُرضية ومريحة. ويُراعى في تصميم المباني توفير التدفئة الكافية والإضاءة ومصادر الطاقة والتهوية المناسبة. ونجد اليوم أن ترشيد الطاقة والحفاظ عليها له أهمية كبرى في التخطيط العمراني. فمثلاً قد يستخدم المعماري نوافذ كبيرة من الزجاج للمساعدة في تدفئة المبنى بالطاقة الشمسية. ومن الممكن أن تتم داخل المبنى عدة أنشطة تشمل الأكل والنوم والاستحمام والترفيه. وكل نشاط يحتاج إلى متطلبات مختلفة من حيث الموضع والسعة والإضاءة والوصول إلى الغرف التي يتم فيها النشاط. فمثلاً غرفة النوم غرفة خاصة يجب عزلها عن بقية الفراغات والغرف الأخرى. وبما أن كل فرد في المسكن يستخدم غرفة الطعام لذلك يجب أن يكون موقعها أكثر توسطًا .

ويحتاج مبنى المكاتب إلى ترتيب الفراغات بشكل أكثر تعقيدًا من المسكن. ولذا يجب أن يتأكد المعماري من أن مئات أو ربما آلاف العاملين يستطيعون الحركة بسرعة بين مختلف أجزاء المبنى. وبالإضافة إلى سهولة دخول وخروج الزائرين، يمكن لأجزاء من المنشأة احتواء بعض الأجهزة الخاصة، ويكون مطلوبًا توفير قدر كبير من الفراغ كمستودعات. ويجب على المعماري أيضًا أن يأخذ في الحسبان النشاطات التي تُمارَس خارج المبنى. فمثلاً قد يتطلب المبنى مرافق كمواقف السيارات. وبالإضافة إلى ذلك، على المعماري التخطيط لأنماط الحركة حتى تتمكن السيارات من الوصول إلى المبنى والخروج منه دون تعارض لمسارات المرور، وأن تكون الطرق فسيحة حتى تتمكن سيارات الإطفاء من الدخول إلى المبنى، وأن تكون أرصفة التحميل بارتفاع مناسب لسيارات الخدمة.

الهيئة:

يحدد المعماري الهيئة الخارجية للمبنى، ليس من خلال شكله فقط، وإنما أيضًا باختيار المواد. فالألوان الطبيعية للحجر والطوب والخشب كانت دائمًا هي الشائعة مفردة أو مجتمعة. ومنذ بداية القرن العشرين الميلادي، أدى الزجاج المظلل دورًا مهمًا في التصميم الخارجي

للمبنى. وأعطى كثير من المعماريين اهتمامًا خاصًا للملمس في تصميماتهم. فاختار بعضهم الخشب أو الحجر الخشن الملمس، وفضل آخرون الزجاج والمعدن المصقول شديد اللمعان .

وابتكر عدد من المعماريين أنساقاً وطرزاً جميلة من خلال الترتيب الحاذق والماهر للمواد. فمثلاً استخدم المعماريون الزجاج والحرسانة ومكوّنات مختلفة من أعمال الطوب أو الأحجار متباينة الأنواع. وبعد التناسب شيئاً حيويًا لهيئة المبنى؛ فيجب أن تكون كل أجزاء المبنى ذات علاقة متناسقة، بعضها مع بعض؛ لا هي كبيرة جدًا ولا هي صغيرة جدًا، بالإضافة إلى أن حجم المبنى وشكله يجب أن يتكاملا مع الموقع ومحيطه. فمبنى عال من الزجاج والمعدن يكون مناسبًا لمنطقة وسط مدينة كبرى ولكنه يكون شاذًا بالقرب من مساكن لعائلات مستقلة بالسكن.

المثانة:

تُقام المباني عادة لتبقى مدة طويلة دون صيانة مكلفة. ولتحقيق هذا الهدف، يجب أن يكون المبنى ذا أساس متين، بالإضافة إلى قدرة واجهاته على مقاومة التلف وتسرب الرطوبة الناتجة عن الطقس في الخارج، ويجب استخدام مواد عالية الجودة في الداخل

4. لغة العمارة: سيميولوجية العمارة

لغة العمارة تمثل في سياقها العام دلالات ورموز ثقافية منبعها العادات والتقاليد والقيم والمؤثرات البيئية وحتى التطورات الحاصلة في ثقافة المجتمع والوسائل التقنية. لغة العمارة يجب أن تقودنا إلى فهم العناصر والتشكيلات، وفهم البنية والشخصية، لإعطائنا القدرة على أن ننسبها إلى بلد معين، إلى ثقافة أو إلى مرحلة من الزمن. كما هو الحال إذا أردنا أن نبني علاقة مع دولة لديها لغة وثقافة مختلفة، الخطوة الأولى تتمثل في تعلم اللغة لنقدر أن نعيش معهم وان نكون جمل مفيدة واضحة وكاملة المعنى والمغزى. وبالتالي، فهم العمارة بشكل عام، يتطلب معرفة المفردات والعناصر الأساسية (الأبواب والنوافذ والمشرية، القبة، القبو، الخ...) التي تشكل المساحات المعمارية (الغرف، المطبخ، الحمام، الخ...) وهذه تشكل المباني (المنزل، المسجد، المدرسة، المتاجر، المستشفيات، المصانع، الخ...) ومجموعة من هذه المباني تشكل الحي البلد والمدينة.

ولغة العمارة هي الفضاء، ليس الجدران، الواجهات، الرسومات الجميلة، الأحجام، المواد، الضوء والظل، النسبة ولا اللون. كل هذا يساهم عند الحاجة إليه، وإذا لزم الأمر، ولكن العنصر الرئيسي هو الفضاء. فالبناء بدون الفضاء حتى لو زين ببراعة.

مادة المعماري: هي الفراغ فهو بيني فراغ، ولا بيني جدار، سقف، وهيكل حتى ولو كان جريء. فيرج إيقّل ليست عمارة لأنّ فكرته كانت مركزة على التنفيذ ولا على الفراغ الذي يحتويه. بعد ذلك، هل يمكن اعتبار الجسر عمارة؟ نعم، إذا كانت فكرته في خلق الفراغ وليس فقط في صموده. غالباً ما بيني المعماريون للتكنولوجيا، للتوظيف، للشكل، للتاريخ، لعلم الاجتماع، لعلم النفس، للسياسة، لكل ما هو في الفضاء ولكن ليس للفضاء. إذا أُعطى للنحات الطين وللشاعر الكلمات، يجب أن يُعطى للمعماري الفضاء. وتصميم الجدران والسقوف، والأحجام، هو وهم لأنه يضع الإجراءات حول هذه "الأشياء"، ويتجاهل الفضاء الغير مادي الذي هو المادة الحقيقية وهو لغة المعماري.

فالفرق الحقيقي بين المعماري والبناء هو أن احدهم يفكر بالأشياء التي تعرف الفضاء، والآخر بالفضاء المحدد من ساكنيه. فالأشياء هي العناصر الجسمية التي من الواضح أن هناك الحاجة إليهم لتحقيق الفضاء المعماري الذي هو الموضوع "مثل الرجل وحياته". مفردات العمارة: يجب علينا الإلمام بمفردات وعناصر العمارة انطلاقاً من مفرداتها الأولية التي تمثل أشكالها المعمارية الخارجية مثل الجدران، القبة، النوافذ والأبواب... مجموع هذه المفردات تتشكل الفراغات المحدودة مثل: الحجرات، الحمامات، الأروقة... ومن هذه المفردات تتكون المباني التي نسميها العمارة مثل: المسجد، الكنيسة، الجسر، المستشفى، القلعة، القصبية وناطحات السحاب... ومن مجموع العمارات يتشكل العمران.

فإذا كان صحيح أن للعمارة لغة، يجب علينا أن نفهم كل مبنى، وبهذا المعنى الطبيعي للعمارة لن يكون بعد ذلك القضية. في هذا الصدد يقول: تشارلز موريس >> إن الرمز يجب أن يُفهم دون أي قواعد" بالرغم أنه ليس بالسهل اعتبار المباني وكأنها رموز طبيعية...<<

النتيجة: لغة العمارة هي الفضاء espace ومفرداتها هي الواجهات، والجدران، الرسومات، والأحجام، والمواد، والضوء والظل، والتصميم والطرز.

الفكر المعماري

تمهيد:

إن شروط قيام العمران والعمارة مرهونا بوجود ثلاثة عناصر رئيسة هي: الساكن (الإنسان) المكان، وتقنية البناء. ولما كان كل واحد يتضمن مجموعة من العناصر الجزئية التي تداخلت وترابطت ببعضها البعض، تشكلت بنية العمارة والفكر المعماري وهيكلته. فالعمارة تتركب من وظيفة يقوم بها المعماري تتمثل في حلّ مشاكل الناس الفنية في تخصصه، ولا يأتي إلا بتكامل الأسلوب وأدوات. أما الأسلوب فهو الأسلوب الهندسي أو الطرق الهندسية الذي يعتمد على الخبرة الهندسية من قياس عملي و تحليلي في جمع البيانات الهندسية اللازمة لحل المشكلة. والأدوات هي المعلومات التطبيقية والوسائل الاقتصادية من مال ووقت اللازمين لإنشاء العمارة. كلّ هذه الأشياء (الأسلوب والأدوات) تعتبر البنية الأساسية للمهندس وعن طريق هذه البنية الأساسية يستطيع المهندس أن يترجم الهندسة إلى تصميمات وأعمال يستفيد منها الناس.

فالفكر المعماري هو جملة الأفكار والآراء والمفاهيم والقيم والأحكام والقوانين التي يتم التعبير بها، ومن خلالها عن الظاهرة المعمارية، وتحديد خصائصها وميزاتها، كما يتم بواسطتها تطويع البيئة وتحقيق القيم الاجتماعية والجمالية، وإنتاج العمل المعماري. فالفكر المعماري عبارة عن محتوى الذي يشكل الجانب النظري، وأداته التي هي الآلية الفكرية التي تستخدم في الإنتاج. أي نظرية وممارسة. و نستطيع استخلاص بعض أسس الفكر المعماري على النحو الآتي:

- لكل فكر إطاره المرجعي بنظاميه العقائدي والمعرفي وبمجزاته الثقافية، ومحيطه البيئي والحضاري.
- أن يرتبط الفكر المعماري بالمجتمع الذي نشأ فيه من حيث كونه مجتمعاً ريفياً أو مدنياً، فقيراً أو غنياً.
- أن ترتبط هذه المنشأة بالتاريخ والجغرافيا، فليس من المعقول أن نقيم في الصين بناء من الطراز المملوكي أو العثماني، أو نقيم في ألمانيا مصنعاً للتبغ والدخان نستوحي منه بناء المساجد المصرية والعثمانية.
- لكل فكر معماري جذور لمفاهيمه المعمارية يستلهم منها فلسفته والتشريعات المنظمة لإبداعاته المعمارية والإنشائية.
- لكل فكري معماري تقنياته وأسلوبه يمكن بواسطتها معرفة محتواه الفكري، منها الأدبيات الحضارية، والأشكال المعمارية لحضارته المعينة.

1. شريعة حمورابي: أول شريعة للعمران:

حمورابي (حمورابي بالأكديّة تلفظ امورابي وتعني المعتلي) حكم بابل بين عامي 1792 – 1750 ق. م حسب التأريخ المتوسط هو من الكلدانيين، وهو سادس ملوك بابل، وهو أول ملوك الإمبراطورية البابلية، ورث الحكم من أبيه سين موباليت. وكان حمورابي شخصية عسكرية لها القدرة الإدارية والتنظيمية والعسكرية.

تعتبر شرائع حمورابي من أقدم وأشمل القوانين في وادي الرافدين بل والعالم. وتحتوي مسّلة حمورابي على 282 مادة تعالج مختلف شؤون الحياة. فيها تنظيماً لكل مجالات الحياة وعلى جانب كبير من الدقة لواجبات الأفراد وحقوقهم في المجتمع، كل حسب وظيفته ومسؤوليته.¹

عرف عصر حمورابي بالعصر الذهبي الذي لم يشهد له مثيل في تاريخ بابل الطويل، حيث أكد تفوقه الثقافي ومكانته الدينية التي احتفظت بها طوال ألف عام أضحت بعمرانها لؤلؤة الشرق العربي القديم وهكذا نجح حمورابي في فرض وحدة الرافدين. فقد أصدر عدد هائل من الشرائع التي سميت باسمه وبلغت مائتين وأثنين وخمسين مادة. ومن أحد مواده المادة 229 التي تقول: إذا بنى مهندسا بيتا لأحد الأشخاص، ولم يكن بناؤه متينا وأنهار البيت، وسبب قتل من فيه يعاقب المهندس بالموت.

وهناك عقوبات رادعة اعتمدت مبدأ العين بالعين والسن بالسن منها إذا كسر إنسان لرجل شريف سنا أو فقاً له عينه أو أي شيء آخر حلّ به نفس الأذى الذي سببه له، وعلى الرغم من أن شريعة حمورابي كانت قاسية في العقوبات لكنها بقيت مدة خمسة عشر قرناً كاملة محتفظة بجوهرها.²

2. المفكر المعماري الغربي فيتروفيوس: التأثير المعماري الروماني على العمارة الغربية

تأثر تطور العمارة الغربية بالمعماري الروماني فيتروفيوس VITRUVIUS وهو مصمّم معماري ومهندس روماني عاش في القرن الأول قبل الميلاد. ويعتبر فيتروفيوس من أكثر الأشخاص تأثيراً على تطور العمارة الغربية لمدة طويلة من الزمن أكثر من أي شخص آخر في التاريخ. و حتى نستطيع تفهم ما وصلت إليه العمارة الغربية اليوم ينبغي علينا تفهم جذورها وأصولها والمؤثرات الهامة عليها. و فيما يلي دراسة مختصرة عن فيتروفيوس وأوجه تأثيره على العمارة الغربية.

¹: فيليب حتّي، تاريخ العراق، ترجمة جورج حداد وعبد الكريم رافق، دار الثقافة، بيروت، 1958

²: سيدّ كريم، لغز الحضارة البابلية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1996، ص 38.

اسمه الكامل هو ماركوس فيتروفيوس بوليو Marcus Vitruvius Pollio و يعرف من خلال عمله الشهير "عشرة كتب في العمارة " و الذي قام بإهدائه إلى الإمبراطور أغسطس Augustus و قد قام بكتابة هذا العمل لكي يوفر للإمبراطور أغسطس الأسس والمقاييس التي يمكن بها الحكم على المباني و توفير منهج تطبيقي دليل عملي للآخرين لكي يتبعوه. و يظهر من مقدمة عمله أن فيتروفيوس كان معروفا لدى يوليوس قيصر كمهندس عسكري و قد تم تعيينه كمهندس مدفعية بمعرفة أغسطس و قد ترقى عبر السنين و تعلت صحته بعدما كتب كتبه المعروفة. و يبدو انه لم يعمل كمصمم معماري لمدة طويلة حيث انه لم يذكر سوى مبنى واحد قام بتنفيذه و هو مبنى البازيليكا في فانم Fanum ويشير في كتبه إلى مدى فقره مقارنة مع ازدهار زملائه المعماريين. و هو يفضل بناء على مقولته، أن يكتب الأسس والمبادئ والفلسفة التي يؤمن بها لإيمانه بأن الكلمة المكتوبة هي أهم مكونات الذاكرة الإنسانية و أن تعليم المهارات والحرفة هي الثروة الحقيقية الوحيدة و النصب التذكاري التي يمكن أن يتركها الإنسان.

أعمال فيتروفيوس

تعتمد شهرته على المحتوى الموسوعي لعمله و احتوائه على مزيج من المناقشات التاريخية و النظرية و التوجيهات العملية المفصلة مما يعكس تعليمه الواسع و معرفته بالأدب والفلسفة والتقنية اليونانية من كل الأنواع و في مختلف المجالات بالإضافة إلى تجاربه العلمية و خبرته الهندسية. حيث أن معظم النظريات الأولى التي اعتمد عليها والتي قام بتسمية مؤلفيها و الموضوعات التي تناولوها لم تدم طويلا فان عمله يعتبر ذو قيمة كبيرة لدراسة تاريخ العلم و الهندسة كما هو بالنسبة للعمارة بمفهومها العام. و تقوم فلسفته على التركيز على الموقع والتوجيه المناسب للمبنى و على علم الصوتيات الفعال و خاصة على النسب الصحيحة في المسقط و الواجهة اعتمادا على ما وصلت إليه المعرفة، في ذلك الوقت، في العلوم الطبيعية و الفيزيائية و الرياضيات و الموسيقى و كذلك الأفكار الفلسفية بالنسبة لطبيعة الأشياء. و هو يوضح ما يجب على المعماري تفهمه بالنسبة للجغرافيا و المناخ والإنسان والناس والطب والبصريات و علم المنظور و الصوتيات و ميكانيكا الأشكال و والمبادئ الرياضية والفلك.

أما بالنسبة لاكتشافاته فهي محل تساؤل حيث انه كان يعتمد على تجربته الشخصية في مناقشاته للتطبيقات الهندسية و خاصة المشاكل الهيدروليكية و الدفعية و الميكانيكية. و تأتي أيضا من تجاربه الخاصة بتوجيهاته باستخدام أدوات مناسبة لتطبيق علم الصوتيات الصّحيح في القاعات المغلقة والمسرح المفتوح من قبل خلال استخدام مزيج من الرياضيات، الفيزياء، والموسيقى.

الكتب العشرة في الهندسة المعمارية:

الكتاب الأول من نظامه الكامل عن الهندسة المعمارية يتعامل مع تدريب المصممين المعماريين في مجالات الفنون الجميلة، و نظريات وعمليات التقنية و المبادئ والتعاريف العامة للهندسة المعمارية واختيار المواقع للمدن والحصون.

الكتاب الثاني يوضّح تطور المباني ويناقش مواصفات واستعمالات مواد البناء. الكتاب الثالث يوضح كيفية عمل خطط المعابد وتفصيلات النظام الأيوبي

الكتاب الرابع يتعامل مع أصول النظم وتفصيلات التيجان الكورنثية والدورية والتوسكانية والتصميم الداخلي.

الكتاب الخامس يستكمل وصف البنايات العامة الأخرى مثل: المنتدى، الباسيليكا الرومانية، الخزينة، السجن، دار المجلس الاستشاري، المسرح الروماني مع التركيز على الانسجام و تطبيق علم الصوتيات من خلال القطاعات المعمارية، الحمامات العامة، الجمنازيوم، وموانئ السفن.

الكتاب السادس يقدم البيوت الخاصة، في المدينة والريف بمحاذاتهم في مختلف أنواع المناخ ولمختلف طبقات المجتمع.

الكتاب السابع يغطّي الزينة و الديكور الداخلي بالتركيز على العمليات التقنية لرسم الصور المنظورية على الحائط.

الكتاب الثامن يتعامل مع الماء، مصادره ونوعياته وطرق تجهيز واختباره.

الكتاب التاسع يهتم بالهندسة الفراغية للأشكال، علم الفلك، وعمل الساعات.

الكتاب العاشر يختتم العمل بمناقشة المبادئ الميكانيكية لإنشاء المباني وهندسة السوائل والعمليات العسكرية.

أوجه تأثير أعمال فيتروفيوس على العمارة الغربية

يعتبر Vitruvius كمرجع من قبل Pliny في القرن الأول بعد الميلاد دليل على أن كتبه كانت تستخدم كعمل قياسي خلال

الحضارة الرومانية لمدة أربعة قرون سواء من ناحية أسلوب الإنشاء أو العمليات التقنية. و الجدير بالذكر هو التأثير الكبير الذي مارسه

على أسلوب المصممين من الأيام الأولى لعصر النهضة الأول إلى العصر الحديث، فالمبادئ والتوجيهات التي وضعها فيتروفيوس قبلها

العديد من المصممين كمرجعية مطلقة. وبالرغم من أن الطراز المعماري الذي وضعه فيتروفيوس لا يتم إتباعه إلا أن أسلوبه المعماري يتمتع باحترام مؤرخي العلم في العصور الحديثة.

تم اكتشاف مخطوطات فيتروفيوس حوالي 1415 م وكان لها تأثيرا كبيرا في توجيه العمارة و الفن و الثقافة عموما نحو إعادة اكتشاف التاريخ القديم وصار المرجع الأساسي للمثقفين. وقد ترجم من اللغة اللاتينية إلى الإنجليزي خلال القرن السابع عشر من قبل السيد هنري واتن. Henry Wotton (1567-1639) وقد قدم فيتروفيوس من خلال مخطوطاته تعريفا جيدا للعمارة في القرن الأول الميلادي) يقول فيتروفيوس: " الهندسة المعمارية هي المباني التي دجت وهو ما ترجمه واتن إلى الانتفاع، الثبات، والبهجة و قد اثر هذا التعريف على تطور الهندسة المعمارية في الغرب منذ عصر النهضة -عند ترجمته من اللاتينية إلى الإنجليزية- و حتى العصر الحديث في مجالات التعليم المعماري و ممارسة المهنة. ويتضمن هذا التعريف تأكيدا بأن العمارة هي تعانق متطلبات وظيفية وتقنية وجمالية. فالعمارة يجب أن تحتوى على: انتفاع وهو ما توفره الوظائف التي تحتوى عليها العمارة والتي يستخدمها الناس مثل السكن و الدراسة و العلاج. الثبات الذي يوفره الاستقرار البنائي والإنشاء المتين. المظهر الجذاب الذي توفره النسب و الألوان و الأشكال.

وبذلك يكون المعماري مسؤولا عن توفير الوظيفة و الأمان و الجمال. وقد كانت إعادة اكتشاف أعمال فيتروفيوس سببا في تنافس بعض المعماريين على الاستزادة من الدراسات الكلاسيكية و تسجيل الآثار الرومانية و الإغريقية و وضع قواعد و نظريات تفسر أسباب روعتها و جمالها وظهر ذلك في كتابات البرتي (Alberti) و فنيولا (Vignola) و غيرهم.

ومنذ عصر النهضة تركز اهتمام المعماريين لقرون عدة على التنافس في النواحي الجمالية للعمارة باعتبار إن توفير النواحي الوظيفية و الإنشائية أمر بديهي ومفروغ منه. وأثر ذلك على طريقة إعداد المعماري لممارسة المهنة حيث كان يتم التركيز على تنمية الجوانب الفنية من خلال رسم التدريب المشهور على رسم "الطرز الخمسة" تبعا للقواعد.

3. الفكر المعماري الإسلامي:

اعتبر العمارة في اللغة العربية: هي مصدر فعل عمر يعمر، عمارة أي صار عامراً، وعمر المكان أهله اسكنوه وعمر المنزل جعله أهلاً³ و ورد فعل عمر عدة مرات في القرآن الكريم {إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر} (سورة التوبة الآية 18). أما المصدر فلا يرد إلى مرة واحدة: {أجعلتم نهاية الحاج وعمارة المسجد الحرام} (التوبة الآية 19). والعمارة اسم للبنيان والعمران، ويقول أبو صالح في كتابه "الفن الإسلامي" «العمران هو البنيان، وهو أيضا اسم لما يعمر به المكان.⁴ أما في الاصطلاح، فإن العمارة فن مرتبط بالبناء وفق قواعد معينة.

وقد ارتبطت العمارة الإسلامية بالوظيفة الدينية، التي تشمل المساجد مند الفتوحات الإسلامية، مما جعل الطابع الروحي يغلب على أنماطها وأكسبها هويتها المميزة، وارتكزت على مبادئ تتمثل في ملائمة أشكال العمارة، وعناصرها مع مبادئ العقيدة الإسلامية والبيئة؛ وتنوعت وتجددت فيها الطرز والتصاميم والأشكال.

ولقد ورثت تقاليد محلية، واستفادت من المدارس المشرقية والأندلسية؛ فاكتملت طابع كل سلالة حكمت البلاد؛ مع الحفاظ على البنيات الجوهرية التي أسسها السابقون فتفننت في إبراز عبقريتها من خلال عناصرها الإنشائية والزخرفية، وأغنت الحقل المعماري الإسلامي بمعلم لا تزال شاهدة على عظمة الصانع الحرفي التقليدي ونبوغه.

امتاز الفكر العمراني بالشمولية في مبادئه العامة وبالتخصصية في جزئيات التطبيق. يبدأ بالأعم الأشمل كسياسة عامة وينتهي إلى التخصص الدقيق في كل فرع من الفروع.

ويعكس النظام الإداري للدولة الإسلامية والذي يكون الحاكم على رأسه ومعاونيه وينتهي إلى القاعدة العريضة من أفراد الأمة. يعرض سياسة العمران للدولة بصفة عامة ثم ينتقل إلى الفكر الموجه لتخطيط المدن إلى أن يصل إلى الحرف والصناعات المتصلة بالعمران وهي عبارة عن كتلة واحدة تتأثر معا في كل جزئياتها.

التنوع في المصادر: تعددت المصادر التي تعرضت للفكر العمراني الإسلامي كالمهتمة بالاجتماع السياسي، والمصادر الفقهية، وكتب الحسبة والمصادر التاريخية والجغرافية التي تتحدث عن المدن وتخطيطها، وكتب الآداب والوثائق ومصادر القضاء الإسلامي، والمصادر المهتمة بالجوانب الأثرية.

³: محمد فريد وجددي، دائرة معارف القرن العشرين، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت لبنان، 1997، المجلد السادس، ص. 685.

⁴: الألفي أبو صالح، الفن الإسلامي أصوله فلسفته ومدارسه، المعارف المصرية القاهرة، 1974، ص. 23.

وعموماً يعتبر الفكر الإسلامي أن (العمارة) هي أولاً وقبل كل شيء (عمران) وهو مفهوم يقوم على مثلث نصابه الآتي:

- الإنسان: الذي يتضمن القيم الإنسانية والروحية والإيمان والعقيدة والقيم الاجتماعية ثم ما يشملها من حيث العقل والحقوق والواجبات والأخلاق وعلاقة الإنسان بالإنسان.. الخ.

- المكان: وهو حجر الزاوية في العلاقة الحميمة مع الإنسان وأسميها (العمارة الصفرية)، وهنا نرصد العلاقة الجدلية، فالإنسان بدون مكان والمكان بدون إنسان هو أمر يخلو من سطوة المنطق. والمكان هنا هو المسرح الطبيعي الجغرافي الذي يتعامل معه ويختلف الإنسان باختلاف هو يتشابه بتشابهه.

- الزمان: ويتضمن البعد الوجودي والبعد الرابع والبعد الإلهي السماوي والكوني والبعد الزمني.

فلا يمكن فصل أحدها عن الآخر فالإنسان وحده لا يكفي والمكان الخلاء بدون عمران الإنسان لا يعني شيئاً وكذلك المكوث في الزمان يعني الالتصاق بالتاريخ والتراث وعدم التطور. فلكل من العوامل الثلاث تأثيره ولا يمكن أن نجد أحدها أو نكتفي بأحده . والكل ما أطلق عليه (المقياس الإنساني) وبالنسبة لي مضمارة تفاعل.

فالحضارة الإسلامية كانت تهدف إلى بناء روح الإنسان لا بناء المباني حيطان وحجارة وجدران بل نمت تعاليم الإسلام عن:

- بناء المقابر الضخمة لأن فيها تقديساً للموتى .

- عن صنع التماثيل لأنها كانت تعبد .

- الإسراف في بناء البيوت مهما بلغ الشخص من الثراء.

الفكر العمراني عند بن خلدون:

يعرف ابن خلدون العمران على أنه التساكن والتنازل في مصر أو محلة للأنس بالعشير واقتضاء الحاجات لما في طباعهم من التعاون

على المعاش. وتنقسم الأسباب الموجبة للاجتماع عند ابن خلدون إلى قسمين:

أولاً - التعاون من أجل تحصيل الغذاء:

شدد ابن خلدون على أن حاجة البشر إلى الغذاء تحتم عليهم الاجتماع وركز على أن قدرة الفرد قاصرة عن تلبية حاجته الأساسية

... وقد قال في مقدمته الشهيرة: " تحصيله إلا أن قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء غير موفية له

بمادة حياته منه و لو فرضنا منه أقل ما يمكن فرضه و هو قوت يوم من الخنطة مثلاً فلا يحصل إلا بعلاج كثير من الطحن و العجن و الطبخ و كل واحد من هذه الأعمال الثلاثة يحتاج إلى مواعين و آلات لا تتم إلا بصناعات متعددة من حداد و نجار و فاحوري و هب أنه يأكله حباً من غير علاج فهو أيضاً يحتاج في تحصيله أيضاً حباً إلى أعمال أخرى أكثر من هذه من الزراعة و الحصاد و الدراس الذي يخرج الحب من غلاف السنبل و يحتاج كل واحد من هذه آلات متعددة و صنائع كثيرة أكثر من الأولى بكثير و يستحيل أن تفي بذلك كله أو ببعضه قدرة الواحد فلا بد من اجتماع القدر الكثيرة من أبناء جنسه ليحصل القوت له و لهم فيحصل بالتعاون قدر الكفاية. "

إن المثال السابق الذي اقتبسناه على سبيل الذكر لا الحصر من مقدمة ابن خلدون يدل وبشكل قاطع على حاجة الإنسان إلى الاجتماع من ناحية حاجاته الأساسية من غذاء وملبس وغيرها من الضروريات .

ثانياً – التعاون من أجل حفظ البقاء:

حفظ البقاء الإنساني يكون ضد نوعين من العدوان في رأي ابن خلدون النوع الأول عدوان الحيوانات والنوع الثاني عدوان البشر فيما بينهم لوجود هذه النزعة بشكل طبيعي فيهم وهنا للتدليل على طريقة ابن خلدون في التفكير سوف نقبس مقطع من مقدمته يقول فيها: " كذلك يحتاج كل واحد منهم أيضاً في الدفاع عن نفسه إلى الاستعانة بأبناء جنسه لأن الله سبحانه لما ركب الطباع في الحيوانات كلها و قسم القدر بينها جعل حظوظ كثير من الحيوانات العجم من القدرة أكمل من حظ الإنسان فقدره الفرس مثلاً أعظم بكثير من قدرة الإنسان و كذا قدرة الحمار و الثور و قدرة الأسد و الفيل أضعاف من قدرته. و لما كان العدوان طبيعياً في الحيوان جعل لكل واحد منها عضواً يختص بمدافعتة ما يصل إليه من عادية غيره و جعل للإنسان عوضاً من ذلك كله الفكر و اليد فاليد مهياة للصنائع بخدمة الفكر و الصنائع تحصل له الآلات التي تنوب له عن الجوارح المعدة في سائر الحيوانات للدفاع مثل الرماح التي تنوب عن القرون الناطحة و السيوف النابتة عن المخالب الجارحة و التراس النابتة عن البشرات الجاسية إلى غير ذلك و غيره مما ذكره جالينوس في كتاب منافع الأعضاء فالواحد من البشر لا تقاوم قدرته قدرة واحد من الحيوانات العجم سيما المفترسة فهو عاجز عن مدافعتها وحده بالجملة و لا تفي قدرته أيضاً باستعمال الآلات المعدة لها فلا بد في ذلك كله من التعاون عليه بأبناء جنسه و ما لم يكن هذا التعاون فلا يحصل له قوت و لا غذاء و لا تتم حياته لما ركبه الله تعالى عليه من الحاجة إلى الغذاء في

حياته و لا يحصل له أيضاً دفاع عن نفسه لفقدان السلاح فيكون فريسة للحيوانات و يعاجله الهلاك . " ثم يعود ليقول: " إذا حصل للبشر كما قرناه و تم عمران العالم بهم فلا بد من وازع يدفع بعضهم عن بعض لما في طباعهم الحيوانية من العدوان والظلم . "

4. كوربوزيه: الثورة على العمارة في العصر الحديث:

ظهرت منذ بداية القرن العشرين عدة مدارس للفكر لم تكن راضية عن الأوضاع السائدة، على ضوء الدمار الذي خلفته الحرب العالمية الأولى، وانتشار القلق والخوف، وغياب اليقين، وسقوط مقولات الحقائق الثابتة، وتداعي منظومة الأفكار والأخلاق التقليدية المحافظة، وتراجع القيم الفنية الكلاسيكية، وبروز روح التمرد الفردي، والانشغال في البحث عن حلول لأزمات الإنسان والتعبير عنها في الثورة لا في وعود الميتافيزيقيا، وأخذت تدعو إلى نشر أفكار جديدة في الفن والأدب والفلسفة والعمارة وغيرها، فكانت هذه الاتجاهات الفكرية بمثابة نذر الدعوة الى عمارة جديدة تعبر عن روح الحداثة، ليس في أوروبا وحدها، ولكن في العالم أجمع .

ويرى بعض المؤرخين بأن تطور العمارة المعاصرة مرتبط بمشروع التحديث والتنوير، وقد تطور الطراز الحديث بحسب رأيهم نتيجة للثورات الاجتماعية والسياسية. بينما يرى البعض الآخر بأنها تطورت أساساً بسبب التطورات التقنية والهندسية، كما أن توفر مواد جديدة للبناء، مثل الفولاذ والحديد والزجاج، أسهم في اختراع تقنيات بناء جديدة. كما عدّ بعض المؤرخين الحداثة مسألة ردة فعل ضد الطراز المفرط في الأناقة والزخرفة للعهد الفيكتوري.

وسعى الرواد من المعماريين الحداثيين إلى إيجاد طراز جديد يعبر عن النظام الاجتماعي والاقتصادي لمرحلة ما بعد الحرب العالمية الأولى، وذلك بالتركيز على احتياجات الطبقتين العاملة والوسطى. وقد رفضوا فكرة تطوير الطرز التاريخية والتي خدمت النظام الارستقراطي المتداعي.

وكان المنهج الذي سار عليه الحداثيون يقوم على اعتبار المباني أشكالاً أو كتلاً مجردة وإزالة كل الإشارات التاريخية والزخرفية لصالح التفاصيل الوظيفية. وصارت المباني تظهر هيكلها الإنشائي وجسور الحديد والأسطح الخرسانية بدلاً من تحببها خلف أشكال تقليدية. وقد صارت هذه العناصر ذاتها محل اعتبار جمالي.

ومع حلول عشرينيات القرن العشرين كانت هناك أربعة أسماء معمارية قد حققت شهرة واسعة هي لو كوربوزيه في فرنسا، ولودفيغ ميس فان دي روهي وولتر غروبسيس في ألمانيا، وفرانك لويد رايت في أمريكا. ترك رايت الذي نادى بأن تكون العمارة جزءاً عضويًا

من البيئة تأثيراً كبيراً على دي روهي وغروبيوس. وصرح غروبيوس بأن رسومات رايت كانت الكتاب المقدس الذي استمد منه أفكاره.

في العام 1932 أقيم معرض مهم هو المعرض الدولي للعمارة الحديثة. وظهر فيه وجود اتجاهات معمارية متشابهة من حيث الطراز ولها هدف عام مشترك. قام المعمارين هنري هيتشكوك وفيليب جونسون بجمعها تحت طراز واحد أطلقا عليه اسم "الطراز الدولي" في كتاب مشترك حددا فيه خصائص وسمات الحداثة على مستوى العالم، والتي كان الطراز الدولي أحد أبرز صفاتها. بدأ المعماريون يتجهون إلى الخطوط الهندسية المستقيمة وينزعون إلى بساطة الشكل، وأصبحت المخططات وظيفية ومنطقية وسهلة. وهكذا انتشرت عمارة الحداثة التي صارت تعبر عنها ناطحات السحاب. ومن أشهر الأمثلة على ذلك مبنى الأمم المتحدة في نيويورك الذي صممه لوكوربوزيه.

يعد لوكوربوزيه Le Corbusier أشهر معماري في القرن العشرين على الإطلاق. وقد امتد تأثيره الطاغي إلى فلسفة تخطيط المدن أيضاً. بلغت شهرته حدا جعلت بلده الأصلي سويسرا تضع صورته على عملتها. كما أشاد به الرئيس ليندون جونسون الذي قال إنه كان له تأثير عالمي واضح في العمارة. كما وصف الاتحاد السوفياتي موته في العام 1965 بأن "العمارة الحديثة فقدت بموته سيدها". وتعكس فلسفة لوكوربوزيه بعض أهم ملامح التوجهات الفكرية للحداثة المعمارية.

صمم لوكوربوزيه الكثير من المعالم المعمارية الحديثة في كافة أنحاء العالم من الولايات المتحدة إلى الهند إلى روسيا إلى أمريكا الجنوبية، ومنها مدينة الجمباز في بغداد. ومن أشهر أعماله فيلا سافوي في فرنسا، والمباني الحكومية الكبرى في شانديغراه في مقاطعة البنجاب في الهند. وقد عمل لوكوربوزيه جاهداً من خلال أفكاره المعمارية على توفير ظروف معيشية أفضل لسكان المدن المكتظة، وخاصة الإحياء الشعبية، فإهمال مسألة البناء برأيه يمكن أن يؤدي إلى مشكلات اجتماعية وقلقل، فكان الأمر "اختيار بين العمارة أو الثورة."

توصل لوكوربوزيه إلى وضع مخططات لمدينة سماها مدينة الإشعاع، واهتم بالتناسق والانسجام كمكونات أساسية في فلسفة تصاميمه، ورفض أي شكل من أشكال الزخرفة، وخاصة المباني الضخمة ذات التماثيل المنحوتة التي تزينها. وكان لوكوربوزيه في نظر أتباعه نبياً لا ينازع، رغم أن نقاده قالوا إنه كان مغرماً بالصروح المعمارية والتماثيل الضخمة بلا روح. ولكن مع بزوغ الخمسينيات بدأت تظهر المقالات الناقدة لإعماله.

5. عمارة ما بعد الحداثة:

يشير المصطلح إلى طراز العمارة الذي بدأ يظهر للوجود منذ بداية خمسينيات القرن العشرين والذي ما يزال تأثيره مستمراً حتى اليوم. وقد ظهرت عمارة ما بعد الحداثة في رد على الرسمية التي كان يتسم بها الطراز الدولي، الذي بدأ بالتراجع على إثر النقد الذي وجه له من أنه عالمي بلا هوية وموجه للنخبة. كتب المعماري السويسري سيغفريد غيديون في مقدمة كتابه "الفراغ والزمن والعمارة" في العام 1961: "في الوقت الراهن هناك ارتباك قائم في العمارة المعاصرة، مثلما هو الحال في الرسم، نوع من التوقف، أو نوع من الإنهاك."

كما ناقش مؤتمر عقد في العام نفسه في متحف ميتروبوليتان للفن السؤال التالي: العمارة الحديثة: موت أم تحول؟ وقد تحول الانقلاب على هذا المذهب إلى واقع من خلال الجدل الذي ثار حول مبنى (بان أم) الذي بني فوق المحطة المركزية الكبرى في نيويورك. وقد كان النقد يدور حول فكرة أن المبنى قد دمر نسق شارع بارك أفينيو. تطورت عمارة ما بعد الحداثة كرد فعل ضد تزمت الحداثة. لقد تم استبدال الأشكال والسطوح الوظيفية الرسمية لحركة الحداثة بالخطوط الدائرية والمنحنية والمائلة ذات الإضافات الجمالية الحركية والرمزية واللونية والتاريخية مع المحافظة على الوظيفية. وتعزز انتصار عمارة ما بعد الحداثة في الثمانينيات . من الأمثلة المعمارية المعروفة على عمارة ما بعد الحداثة بناية سيجرام في نيويورك التي أقيمت سنة 1958 وتعتبر أحد أجمل الأمثلة على الوظيفية الجمالية، ومن الأمثلة المشهورة بناية بورتلاند في ولاية أوريجون ذات الواجهة التي تتسم بالخطوط الرأسية والأفقية والنوافذ العديدة المتناظرة .

العمارة عبر الحضارات

يقسم تاريخ العمارة إلى حقب زمنية لكل منها طراز معين يميزها عن غيرها على الرغم من التقارب الزمني والمكاني بين بعضهم البعض. منذ بدء الخليقة والإنسان يسعى لتلبية احتياجاته من المسكن حتى يتسنى له العيش، فبدأ بالكهوف كمساكن جاهزة ثم بدء يتطور شيئاً فشيئاً حتى وصل لاستخدام خامات البيئة المحيطة والأشجار والأحجار حتى وصلنا لما نحن فيه الآن ومازالت تتطور.

أولاً: عمارة العصور القديمة:

ظهرت أول عمارة ذات أهمية في منطقتين في الشرق الأوسط، قبل أكثر من 5000 سنة مضت. وإحدى هاتين المنطقتين هي بلاد ما بين النهرين، التي تقع بين نهري دجلة والفرات شرقي العراق حالياً وشمال شرقي سوريا وجنوب شرقي تركيا، والمنطقة الأخرى هي مصر.

1. عمارة بلاد ما بين النهرين:

سيطرت أربع مجموعات ثقافية على تاريخ بلاد ما بين النهرين. وهذه المجموعات هي السومريون والآشوريون والبابليون والفرس. فقد اشتهر تاريخ المنطقة بحروب وغزوات كثيرة، لذلك شيدت الحضارات المتنوعة كثيراً من المباني المحصنة، فكانت معظم المباني في بلاد ما بين النهرين مصنوعة من الطوب الطيني، وهي مواد أقل ديمومة من الحجر والخرسانة. ونتيجة لذلك لم يبق أي مثال كامل لعمارة بلاد ما بين النهرين. وبالرغم من ذلك فقد أعاد علماء الآثار إنشاء المساقط الأفقية لبعض المباني .

ازدهرت الحضارة السومرية في بلاد ما بين النهرين في القرن الحادي والثلاثين قبل الميلاد، وكانت المعابد أول المنشآت السومرية المهمة. وأقدم مثال هو المعبد الأبيض الذي بني في أواخر القرن الحادي والثلاثين قبل الميلاد في مدينة أوروك. والمعبد مبني من الطوب المطلي باللون الأبيض. فقد بنى المعمارون المعبد على مصطبة عند قمة برج يشبه الهرم. وتسمى مثل هذه الأبراج الزكورات.

وخلال منتصف القرن الثامن قبل الميلاد، استعمر الآشوريون المنطقة، وبنوا قصوراً ومعابد، متأثرين بفن العمارة السومرية، ولكن بعمارة ذات تصميمات فخمة وجميلة. فقد كان حصن الملك سَرْجون الثاني الذي بُني في مدينة خورساباد في أواخر القرن الثامن قبل الميلاد واحداً من أهم إنجازات العمارة الآشورية. ويقع الحصن في الركن الشمالي الغربي للمدينة، ويشمل قصوراً ومعابد ومباني عامة وزكورات، وقد أحاط بالمدينة جدار دفاعي .

وبعد سقوط الآشوريين في القرن السابع قبل الميلاد، جاء البابليون إلى السلطة، وبنوا زكورة مشهورة أشير إليها في التوراة ببرج بابل

(أوائل القرن السادس قبل الميلاد). وضمت عاصمتهم بابل الحدايق المعلّقة المشهورة، وبوابة عشتار التي كانت مزينة بالطوب الملون والمزخرف بالخزف .

وفي عام 539 ق.م، غزا الفرس بلاد ما بين النهرين. وقد كان دين الفرس، الزرادشتية، لا يحتاج إلى معابد. ولكنهم بنوا قصورًا كثيرة أشهرها مجمع القصر في العاصمة الدينية برسيبوليس. ويضم هذا المجمع عددًا من المباني المتصلة التي اكتملت في منتصف القرن الخامس ق.م، وتشتمل على عدة قصور بما قاعات وغرف وأفنية. وكان ملك الفرس يستقبل زواره في حجرة ضخمة تعرف بقاعة المائة عمود. ومساحة هذه الصالة حوالي 276م²، ولها سقف ضخم محمول بجسور على أعمدة ارتفاعها قد يصل إلى 18م. معبد خونس بني في الكرنك في مصر في القرن الثاني عشر ق.م. يحمي المدخل برجان ضخمان يطلق عليهما المستلتان (إلى اليسار). ويظهر الرسم المقطوع الأعمدة داخل المعبد التي تحمل السقف. وإلى اليمين الحجرة المقدسة المخصصة لإله القمر خونس .

2. العمارة المصرية القديمة:

كانت تتمركز حول الملك، الذي كان الحاكم الديني والسياسي لمصر القديمة. وقد اعتبر المصريون القدماء ملوكهم آلهة، وكانوا يبنون المدافن الحجرية والمعابد والقصور لتخليدهم. وأشهر المدافن المصرية الأهرامات الضخمة التي كان يُدفن فيها الملوك. وما زالت بقايا 35 هرمًا رئيسيًا تقف إلى الآن محاذية لنهر النيل. وكان كل هرم جزءًا من مجموعة منشآت تضم عادة معبدًا كبيرًا في الجبهة الشرقية للهرم ومعبدًا أصغر بالقرب من النيل، ويربط ممر طويل المعبدين. ويبدو أن المصريين اعتقدوا أن الحجرة التي يُدفن فيها الملك أكثر أجزاء الهرم قداسة، لذلك أحكموا إغلاق المداخل التي تؤدي إلى الهرم وإلى غرفة الدفن.

وأول هرم مصري معروف بُني للملك زوسر حوالي 2650 ق.م في سقّارة. وكان الهرم يرتفع فوق سلسلة من ستة مدرجات ضخمة. وقد بُنيت ثلاثة أهرامات في الجيزة منذ حوالي 2600 إلى 2500 ق.م للملوك خوفو وخنفرع ومنقرع. وهي أعمال ضخمة ذات جوانب ناعمة.

بدأت الفترة العظيمة للعمارة المصرية في القرن السادس عشر قبل الميلاد، واستمرت حوالي 500 عام. فقد قام المعمار يون خلالها بتصميم المعابد أساسًا وليس الأهرامات. وكانت المعابد منشآت ضخمة محمولة على أعمدة. وقد ربطت الصالات والمنحدرات مختلف أنواع الغرف. ويدخل الناس إلى معظم المعابد من خلال بوابات مكونة من برجين ضخمين يُطلق عليهما اسم أبراج البوابة.

وأحد أشهر معابد تلك الفترة المعبد الذي بُني للملكة حتشبسوت في الدير البحري في حوالي عام 1480 ق.م، والذي شيده رعاياها عند سفح جرف صخري ضخّم في اتحاد واضح بين العمارة والطبيعة.

لقد كشفت بحوث الآثار التي بدأت في عصر الحياة التي امتدت جذورها إلى عصر ما قبل الأسرات أن المصريين القدماء كان لهم الفضل في وضع مثلث تكنولوجيا علم بناء للعالم اجمع ذلك المثلث الذي تتكون أضلاعه من:

أ. وحدة البناء : وهو قالب الطوب الذي ابتكره المهندس المصري القديم منذ 8 آلاف سنة وأعطاه اسمه (تويتي وحدد شكله ونسب أبعاده التي احتفظ بها العالم ألي اليوم).

ب. وحدة القياس : ابتداء من اليوحة الهرمية للذراع المعماري وغيره من وحدات القياس وتقسيماتها العشرية والمئوية واستعمالها في حساب الأبعاد والمسطحات والفراغ مع ما ارتباط بكل منصف من نظريات حسابية ورياضية وهندسية بجانب اختراع الأرقام التي حدد بها وحدات القياس وعلوم الرياضيات والهندسة التي وضعت نظريات في العمارة وعلوم الإنشاء بالإضافة إلي ابتكار وحدات قياس الزمن ابتداء من السنة الثانية وتقسيماتها التي نقلها عنه العالم اجمع ولم يحاول تغييرها إلى اليوم.

ج- وحدة التشكيل : ابتداء من الخط المستقيم بمختلف الزوايا والدوائر والمنحنيات وتشكيلاتها الهندسية وما ارتبط بها من علوم حساب المثلثات والهندسة الوصفية والعلوم التشكيلية.

أهم مميزات العمارة المصرية القديمة:

تتميز العمارة المصرية في أقدم عهدها بالبساطة والضخامة والعظمة التي تشعر بالقوة والاستقرار وتتجلي روح البساطة هذه في أهرام الجيزة وهم سقارة المدرج ومعبد أبو الهول علي أن هذه البساطة كانت مقرونة بالجمال والانسجام كما كانت مقرونة بعلم واسع بهندسة البناء وحساب الضغط ومقاومة الأجسام وغير ذلك من أحوال العمارة.

إن المصريين اتجهوا اتجاهها جديدا وهو اتجاه الي تذوق الطبيعة وولوج باب الحياة والحركة ولنا ان نلمس ذلك الاتجاه الجديد في مبانيهم وتمثيلهم.

بدءوا في إقامة الأبناء الفسيحة والأعمدة الشاهقة وكانوا يلجأون في إضاءتها إلي جعل الأعمدة الوسطي أعلي كثيرا من الأعمدة الجانبية وكان من نتيجة ذلك أن السقف عند الجانبين يكون أكثر انخفاضا عنه في الوسط وبذلك يدخل الضوء من خلال ما بين الفتحات وهذا الضوء يكون شديد السطوع عند الفتحات ثم ينتشر في باقي أجزاء المعبد.

. من أهم مميزات العمارة المصرية القديمة الضخامة وزيادة سمك الحوائط الخارقة وميلها للداخل من أعلي حيث كانت الحوائط تبنى بسمك يقل في العرض كلما ارتفع البناء بحيث يبقى سطح الحائط من الداخل عمودياً فيصبح السطح الخارجي مائلاً مما يزيد في قوة الحائط وثباته ويقول بعض المؤرخين أن سبب ذلك يرجع إلي أن الزلازل كانت في مصر أكثر واقوي واشد في أيام الفراغنة منها الآن وقد تمسك المصريون القدماء بطريقة زيادة سمك الحوائط الخارجية وميلها للداخل من أعلي وأصبحت مميزة للعمارة الفرعونية.

استعمال الأشكال المستطيلة أو المربعة المتجاورة أو المتداخلة فنجد مثلاً شكل المبنى الذي عبارة عن مستطيل رئيسي يتكون من عدة مستطيلات صغيرة كل منها يتجزأ لمستطيلات فيصبح المبنى منظماً تنظيمياً سليماً وتنتشر أجزاء المبنى يمينا ويساراً للدخول بتعدد هذه الأجزاء والوحدات واتساعها تتحدد مساحة المبنى أو المعبد أما من حيث المظهر فكان المبنى يحكمه الضخامة والمظهر وتعدد الطوابق وارتفاعها أن وجدت بل كانت هذه تحلق وتفصل داخل ارتفاع المبنى الذي اختاره المهندس المعماري الفنان ورأهناسبا لركة وعظمة المبنى وقد تعمد المهندس المصري لتصغير الفتحات لأقصى حد ممكن إن أصبحت الحوائط ذات مسطحات كبيرة سليمة ولها فتحات الأبواب وفتحات صغيرة علوية ينبعث منها الضوء بقدر مما يزيد الجو رهبة وروعة.

وبالنسبة لمقابر الأفراد خلال هذه الفترة , فقد كانت عبارة عن حفر بسيطة بيضاوية أو شبه مستديرة تحفر في إطار مساكنهم أو في جبانة مستقلة وكان المتوفى يلف في حصير أحياناً أو يوضع في تابوت من أعواد النبات أو أغصان الأشجار ولقد كانت المقبرة تكسى بالأغصان والحصير ثم أصبحت الجدران تشيد بالطوب اللبن وكسيت الأرضيات بنفس المواد وقد ظهرت فكرة استخدام القواطع لتقسيم الحفرة لعدة وحدات وفي فترة ما قبل الأسرات يتضح تطور المقبرة من اتخاذ حجرة الدفن للشكل المستطيل وكثرة استخدام الطوب اللبن والأخشاب مع تطور استخدام الحواجز من الطوب اللبن لتقسيم الحفرة لعدة أقسام وهو الأسلوب الذي بدأ يظهر في مقبرة الكوم الأحمر.

3. العمارة البيزنطية:

العمارة البيزنطية هي عبارة عن الفن المعماري في عصر فجر المسيحية حسبما أخذ مجال تطوره في "القسطنطينية" وفي الإمبراطورية الشرقية ككل بعد تحول العاصمة الرومانية إلي القسطنطينية عام 324 م؛ ولقد كانت أغراضه متشابهة تماماً لأغراض العمارة

الرومانية في فجر المسيحية. ولقد اتخذت الإمبراطورية الغربية نظام المباني البازيليكية في بناء الكنائس. أما الإمبراطورية الشرقية اتخذت نظام القباب الذي هو نتاج للتأثير الشرقي حيث أن القبة كانت هي المستعملة في التسقيف في العصور المتقدمة عند الفرس وغيرهم من ممالك الشرق. و يقع في القسطنطينية اليوم أروع ما نتجت عنه هذه الحقبة وهو متحف (كنيسة تحولت إلى مسجد ثم متحف حاليا (آيا صوفيا).

ثبتت القسطنطينية دعائم المسيحية واعتبرت الدين المسيحي هو الدين الرسمي للإمبراطورية الرومانية عام 323م. وعلى ذلك كان الطراز البيزنطي في العمارة هو التعبير الرسمي للأبنية العامة والكنائس والأديرة ولكن سرعان ما دب الخلاف بين المسؤولين في الكنيسة، وخاصة حينما بدأ يظهر ذلك الانقسام السياسي بين الشرق والغرب في الإمبراطورية الرومانية. وكانت الكنيسة الغربية تزعم أن "الروح تتقدم وتنبع من الأب والابن" بينما الكنيسة في الشرق تقول "أن الروح تتقدم وتسير مع الأب فقط" (هذا تبعا لعقائد المسيحية الموجودة) ونشأ عن هذه الخلافات المذهبية أن غادر البلاد بعض الفنانين والمهندسين الأغريق، ورحلوا إلى إيطاليا ليزاولو أعمالهم وفنهم المتحرر، ولهذا السبب نجد أن العمارة البيزنطية في الشرق خالية من التماثيل المعبرة واللوحات الزيتية عكس الطراز البيزنطي في الغرب الذي تميز بهذه العناصر المعبرة من تماثيل ولوحات زيتية ذات الألوان الزاهية الجميلة.

مواد البناء المنتشرة في هذا العصر

حذا البنائون البيزنطيون حذو الرومان في طرق الإنشاء واستخدام مواد البناء، أي أنهم استعملوا الطوب والخرسانة في الحوائط والأقبية وغيرها وحتى الفخار فلقد استعملوه في القباب وذلك لخفته. أما الطوب فكان يستعمل لدرجه محدد إذ لم يكن استعماله يمثل الكثرة التي كان يستعمل بها في إيطاليا. وكان الطوب يستعمل غالبا في بناء الحوائط الخارجية من مداميك على هيئة رباط لغرض زخرفي وليحل محل الحلقات التي لم يكن لها وجود إلا قليل وكان الطوب المستعمل كنظيره من الطوب الروماني تماما "أي من قطع كبيره رفيعة" وكان يبني باستعمال المونة ولحاماتها متسعة.

ملامح العمارة:

ولقد كانت القباب وما أدخل عليها من ابتكارات في أوضاعها وطرق إنشائها هي أهم ما يميز عمارة ذلك العصر، وخاصة استعمال المثلثات الكروية pendentives لحمل تلك القباب على الصالات المربعة تحتها وذات الشبايك الصغيرة في محيطها أو محيط ذلك

الجزء الاسطواني. وعلى أثر ذلك تطور المسقط الأفقي للكنائس في ذلك العصر بما يتمشى مع استعمال القباب، فأصبح المسقط عبارة عن صحن مربع كبير فوقه القبة الرئيسية، و له أذرع أربعة تكون معه شكل صليب، و سقف كل من هذه الأذرع على شكل قبة أو نصف قبة، أما الأركان الأربعة المحصورة بين الصحن وتلك الأذرع فكانت أسقفها اما قباب صغيرة أو مصابات "groined vaults". وقد اشتهر المهندسون في ذلك العصر بالإبداع والتفوق في التكوين المعماري لهذه القباب مع بعضها من كبيرة وصغيرة ونصف قباب، مما جعلها فريدة من نوعها على مر الزمن. وأهم ما يلاحظ أيضا أن أبراج الأجراس للكنائس لم تظهر في هذه المنشآت في ذلك العصر. أما من حيث الواجهات الخارجية لتلك الكنائس، فقد كانت بسيطة قوية معبرة، ذات صف واحد أو أكثر من الشبائيك الصغيرة لإنارة الأجنحة الصغيرة حول الصحن الكبير والشرفات الداخلية أعلاها والتي أخذ استعمالها في الانتشار. وأما من حيث التفاصيل المعمارية الداخلية فكانت أقرب ما تكون لتفاصيل العمارة الرومانية وأساسها الطراز الأيونى والطرازين الكورنثى والمركب، وذلك بعد إدخال عدة تعديلات على هذا الطراز بما يتناسب والطراز الجديد. وأهم هذه الابتكارات والمستحدثات في هذا الشأن، هو ما ظهر من انبعاث تيجانها إلى الخارج، ووضع جلسة مربعة أعلا هذه التيجان مباشرة، وذلك لتحسين حمل العقد الذي يتدلى من هذا المنسوب مباشرة وبدون استعمال التكنة الرومانية. المعتادة، وكذا استدارة سوك هذه العقود لاستمرار عمل الموزاييك على بطياتها، كالتى يتم عملها على الحوائط الرأسية تماما.

من الناحيتين الاجتماعية والتاريخية

تعتبر بيزنطية من الناحية الاجتماعية مقر الحكم السياسى والدينى والعسكري عام 234م، نظرا لموقعها المتوسط بالنسبة للإمبراطورية الرومانية، ولكن نظرا لأن أهل هذه المدينة في ذلك الحين كانوا محدودى الذكاء، مشهورين بالكسل والشراسة، فكان لهذا التغيير، وهو انتقال العاصمة والحكم إلى القسطنطينية، أثر فعال وسريع في تدهور الإمبراطورية الرومانية. كانت بيزنطية مدينة إغريقية قديمة، وعلى ذلك فالمباني الحكومية التي أنشئت في ذلك الوقت قام بنائها حرفيين أغارقة متأثرين بالروح والتقاليد الرومانية.

4. العمارة الرومانية:

امتدت الإمبراطورية الرومانية على مساحة واسعة وكونت أحد أكبر الامبراطويات القديمة وكانت عاصمتهم روما، وأعتمد الرومان اللغة الخارجية للعمارة اليونانية وناسبوها لاحتياجاتهم كما في الإمبراطورية الرومانية الشرقية والتي كان مركزها سوريا. مع ذلك رؤيتهم

الفضائية، كانت جذرياً مختلفة عن العمارة اليونانية وشكل البناء عكس تماماً هذا الاختلاف، الفرق الرئيسي هو الطابع السياسي والاجتماعي : الهيكل اليوناني كان مشكل من العديد من المدن - والدول التي اتضحت فيها فنون العمارة الرومانية، الرومان فتحوا العديد من البلاد وأخضعوها لسلطتهم، لذلك كانوا بحاجة إلى عدد من المباني والمعابد والهيكل العامة والقلاع للمراقبة والتخطيط للطرق الرومانية، ترك الرومان عشرات المدن الرومانية ذات التخطيط المتقن والكثير جداً من المواقع الأثرية الهامة تنتشر من روما إلى آسيا الصغرى وسوريا وتمتد إلى مناطق في شمال أفريقيا وفي آسيا، وتمثلت العمارة الرومانية في المعابد والقلاع والكنائس والقنوات المائية والطرق والقناطر والخزانات والمنازل والمباني الرسمية والكثير من المعالم التي تمثل أهم معالم الحضارات.

تعتبر العمارة الرومانية كغيرها من النماذج المعمارية الأخرى، حصيلة الفنون والحضارات السابقة والمحيط وأهمها الإغريقية، ولكن الرومان طبعوها بطابعهم الخاص الذي لا يمكن أن يخطئه أحد وكانت رابطته بالماضي قويه معبره في نماذج المعابد المختلفة التي تشهد بعظمتها في تاريخنا المعاصر.

أهم مميزات العمارة الرومانية:

وأهم ما يميز العمارة الرومانية هو الطريق الجديد الذي أنتهجه هذه العمارة بحيث إنها اتجهت إلى الاهتمام بالمباني الدينية عن الدينية وعن الأماكن العامة عن الخاصة وأيضاً استخدام العقود بأشكالها المختلفة والتي اتخذت عدة أشكال جميلة ؛ وأهم معالم ومميزات العمارة الرومانية: القوه، قلة التكاليف، المرونة التامة، سهولة الوصول إلي وحدات متسعة.

أظهرت أعمال المعماريين الرومان عدم اهتمامهم بالمعابد الدينية فكانوا يكتفون بمحراب في كل بيت، ومن أهم المعابد الدينية والذي يعتبر نموذجاً آخر من النماذج المعمارية "سيباي" في "تيفولي" وقد استخدمت فيه الخرسانة والتي استخدمت من قبل الشرق ولكن في التحصينات، وقد عرف الرومان كيفية إخفاء الشكل الغير مقبول للخرسانه عن طريق تكسيته بالطوب أو الحجر.

وقد تميز الإبداع والفن في العمارة الرومانية بالصعوبة والتعقيد الذي لم يكن ملحوظاً في العمارة الإغريقية بسبب الابتكارات المعماريه التي أنشأت عناصر معماريه جديدة مثل : العقود، قبوات، والقباب جميعها باستخدام الخرسانه.

وعماره الرومان مكنتهم من بناء قبوات وقباب واسعة باستعمال الحديد مثل :

1. القبوه نصف الإسطوانيه : محملة على حائطين متوازيين. 2. القبوة المكونة من قبوتين نصف اسطوانتين متقابلتين. 3. القبوة نصف الكروية.

.المعابد الرومانية:

يعتبر معبد فورتينا فيرليس النموذج الأول للمعابد الرومانية التي حققت طموح الرومان في الحصول على صالات متسعة رحبة لعرض التماثيل والأسلحة والأدوات التي اغتنموها من حروبهم، والنموذج الثاني هو معبد سيبيي والذي كان عبارة عن كوخ مستدير في الريف الروماني ثم تم إنشائه بالحجر وبملاك واجهات جميلة ورشيقة وداخل الصالة يحتوي على شبابيك وأبواب تم بناؤها بالحجر المنحوت والجدران تم بناؤها بالخرسانة ولأول مرة بكسر الأحجار والطوب وخلافه ثم غطيت الحوائط بكسوة من قطع الأحجار الصغيرة وقد استخدمت هذه المباني قبل ذلك بألفي عام في الشرق ولكنها أصبحت علامة مميزة للحضارة الرومانية وذلك لسهولة تشكيلها ورخص ثمنها وسهولة الوصول على تصميم وحدات متسعة.

وما يميز الرومان أنهم استطاعوا أن يخفوا تلك الخرسانة تحت غطاء جميل من الطوب أو الحجر أو الرخام أو بطلاء أبيض ناعم ولكنها اليوم معظمها عارية على عكس الأطلال الإغريقية والتي ما زالت تتمتع بروبقها وجمالها حيث ظهرت الخرسانة العارية القبيحة التي بنيت بها المعابد الرومانية.

كانت تبنى عادة المعابد الرومانية إما مواجهة لمصدر الضوء أو مواجهة لميدان عام وكان للموقع أهمية كبرى في التصميم واهتم الرومان بمدخل المعابد ولم يهتموا بأن يكون المعبد في موقع يسمح برؤيته من جميع الاتجاهات كما كان عند الإغريق.

وتم تصميم المعابد الرومانية على نوعين رئيسيين، فهي إما مستطيلة الشكل أو دائرية، وكانت المعابد عامة تحتوي على خلوة واحدة متسعة ورواق من الأمام، ويعد أشهر المعابد المستطيلة(معبد فينوس):

هذا المعبد مقام على قاعدة طولها 521540 x قدم وبه 200 عمود من الجرانيت المصري وتحتوي الواجهة على أعمدة من النظام الكورنثي ومن مميزاته أيضا أنه كان يحتوي على هيكلين ويمتاز بسقفه المغطى بالقرميد الزجاجي المغطى بطبقة من البرونز المذهب التي نرعت عنه عام 625 لتغطية سقف كنيسة سانت بيتر روما ولذا يمكن أن نتصور مقدار ما كان لهذا المعبد من روعة وجمال من حيث التنسيق الهندسي وروعة الفن التشكيلي المنبثق من التكوينات المعمارية والعناصر الفنية.

.المقابر:

كانت المقابر الرومانية التي تعتبر في منتهى البساطة من حيث المسقط الأفقي العام والمكونات والعناصر تنقسم في عهد الرومان إلى ثلاثة أنواع:

. القبور : وهي عبارة عن أقبية تحت الأرض وبحوائط فتحات معقودة للوصول إلى رفات الموتى بعد حرقها.

. القبور التذكارية : وهي عبارة عن أبنية مستديرة الشكل ذات اتساع معين محاطة ببواكي وترتكز على أسفالم مرتفعة وسقف مخروطي الشكل.

. القبور الهرمية : وقد أدخلت في روما عقب فتح مصر عام 30 ق.م. على شكل أهرام.

. المسارح والمدرجات: تم تصميم المسارح الرومانية على شكل نصف دائرة مثل الإغريقية وكانت تبني على مواقع مسطحة مقامة على عقود من الحجر ونقط ارتكاز معمارية وإنشائية بالطرق العادية المستعملة.

أما المدرجات فكانت تعبر عن عمل واضح لحياة الرومان من حيث القوة، الروعة، القسوة، الوحشية حيث تقام المعارك بين الأسرى والوحوش لتسلية المشاهدين، وأشهر هذه المباني هو " الكولوزيوم " عام 70-82 ق.م.

تم تصميم الكولوزيوم بمسقط أفقي ببيضاوي الشكل، يحتوي على 80 باكية خارجية لكل طابق يحيط بالجزء الداخلي حائط بارتفاع 50 م وخلفه اليوديوم وهي مدرجات الإمبراطور وحاشيته.

بدأ إنشاء الكولوسيوم عام 72 بعد الميلاد ودشنه الإمبراطور تيتوس الذي هدم المعبد في القدس بعد 8 سنوات من البناء فأقيمت فيه الألعاب الرياضية لمدة مائة يوم قتل خلالها خمسة آلاف حيوان مفترس ونصب البحارة خياما وأشعة على سقفه لحجب ضياء الشمس القوية عن المتفرجين، وسمي كولوسيوم نسبة إلى تمثال نيرون البرونزي الضخم في شكل اله الشمس وارتفاعه 38 مترا، والذي كان منتصبا بالقرب من المدرج في أول شارع النصر (أو المنصة الامبراطورية الآن) بعد أن جره 12 فيلا لإقامته في ذلك الموقع وبني بالقرب منه قوس قسطنطين عام 315 بعد الميلاد تكريما لنصر الامبراطور الذي بنى القسطنطينية والذي قلده الفرنسيون في قوس النصر بباريس.

ومن أهم الابتكارات المعمارية الرومانية هنا :

*الأكتاف الكبيرة التي تحمل ثلاثة أدوار من البواكي وتدور حول المبنى من الخارج. 2. الطريقة الزخرفية في استعمال الأنظمة المختلفة الواحدة فوق الأخرى وهي طريقة تستعمل في العمارة الإغريقية. 3. الكورنيش العظيم المستمر بانتظام في أعلى المبنى.

*. أقواس النصر:

هي عبارة عن بناء ضخمة من الحجارة مزينة بنقوش تاريخية متصلة به أعمدة محمولة على قواعد مرتفعة تحمل تنمة البناء بشكل دورة منقوش عليها بالكتابة السبب الذي شيد من أجله حيث كانت تشير للأباطرة والقواد تذكراً لانتصاراتهم وقد استعمل الطرازين الكرونيشي والمركب وأشهرهما :

* قوس نصر تيتوس شيد عام 18 ق.م، في بيت المقدس وهو قوس ذو فتحة واحدة وعلى الواجهتين نصف أعمدة ملتصقة وفي الأركان ثلاثة أرباع عمود على النظام المركب.

* قوس نصر سيطمس شيد عام 204، وهو قوس ذو ثلاث فتحات مصنوع من الرخام الأبيض وترتكز عقودها على أكتاف في مقدمتها أعمدة على النظام المركب، ويحتوي الكتف القبلي على سلم يوصل إلى الأعلى. ومن أشهر وأفضل الأقواس الرومانية أيضاً قوس الإمبراطور قسطنطين الذي شيد في عام 315 ق.م.

المساكن الرومانية: تنقسم المساكن الرومانية إلى نوعان رئيسيان هما:

* مسكن العائلة المفردة وهو النوع المفضل من المساكن الفردية المخصصة لسكن الأسر الغنية من معالمه المميزة وجود صالة مربعة أو مستطيلة تتوسط المسكن مضاءة من السقف تتجمع حولها الحجرات ويحمل السقف المفتوح إلى السماء عند أركان الفتحة أربعة أعمدة كورنثية وفي أرضية هذه الصالة حوض غير عميق يستقبل مياه المطر من فتحة السقف وتتصل هذه الصالة بحديقة خارجية ويحيط بالمسكن حوائط صماء لحجبه عن الشارع وتوفير عوامل الخصوصية.

* مجمع المساكن عبارة عن عدة مساكن مجتمعة في مبنى واحد وهي مبنية من الخرسانة والطوب تشكل في مجموعها ومن تكويناتها أفنية داخلية ويحتوي الدور الأرضي على محلات تجارية وحواصل ودكاكين وحانات ولم تكن لها علاقة بالمساكن العلوية، وتصل الأدوار السكنية في المباني من حيث الارتفاع إلى خمس طوابق.

ثانياً. عمارة القرون الوسطى في أوروبا:

ترجع عمارة القرون الوسطى إلى المنشآت التي بنيت في أوروبا خلال الفترة التاريخية التي امتدت بين القرنين الخامس والسادس عشر الميلاديين، وتشمل عمارة القرون الوسطى في آسيا وإفريقيا وأوروبا العمارة الإسلامية، بما فيها العمارة الأموية والعباسية والعمارة في الدول الإسلامية بعد ذلك (انظر: العمارة الإسلامية). وبالنسبة للمسيحية فقد تركزت الحياة الروحية والفكرية في القرون الوسطى في أوروبا حول الكنيسة لذا صمم المعماريون الكنائس والأديرة والمباني الدينية الأخرى، كما صمموا القلاع والحصون والمنشآت الأخرى غير الدينية. وطور معماريو القرون الوسطى عددًا من الطرز، حيث غلب الطراز البيزنطي في أوروبا الشرقية. أما في أوروبا الغربية فكانت الطرز الرائدة هي الكارولنجي والرومانسك والقوطي. وقد سبقت هذه الأنواع الأربعة العمارة المسيحية المبكرة التي ازدهرت في الفترة بين القرنين الرابع والسادس الميلاديين.

العمارة المسيحية المبكرة: تطورت أثناء القرون الأولى للمسيحية عدد من الثقافات والطرز المعمارية الإقليمية في أوروبا والشرق الأوسط، ولكن معظم المعماريين النصارى الأوائل اقتبسوا كثيرًا من الرومان، واستخدموا العُقْد والقبو المعماري، واتخذوا تصميم القاعات الرومانية الكبيرة، التي كانت تُستخدم للاجتماعات العامة، كقاعدة لتصميم النوع الرئيسي من الكنائس، أي البازيليقا. ويمكن اعتبار كنيسة القديس بطرس القديمة (بَدْءُ بنائها حوالي عام 330م) كأول وأهم بازيليقا مسيحية مبكرة، وهي تقع في نفس مكان كنيسة القديس بطرس الحالية في روما. ويدخل المصلون إلى كنيسة القديس بطرس القديمة من الجانب الشرقي، وللوصول إلى المدخل يمرون بفناء كبير مكشوف يطلق عليه الأتريوم أو البهو الروماني (فناء صحن الدار أو البهو)، ويمرون كذلك بالدهليز، ويفصل الفناء والدهليز المدينة الصاخبة عن الكنيسة الهادئة، ويشبه المسقط الأفقي شكل الحرف T، والجزء الرأسي للحرف هو الصحن الرئيسي، ويمتد ممران جانبيين على طول الصحن الرئيسي، ويشكل ذراعًا الحرف T الجناح الرئيسي للكنيسة، وهناك فراغ نصف دائري يطلق عليه القوصرة، مفتوح من جهة مركز الجناح الرئيسي في الجانب الغربي للكنيسة، ويوجد في هذه القوصرة المغطاة بنصف قبة مذبح الكنيسة الرئيسي، وفي معظم البازيليكات، تفصل الممرات والأروقة الفراغ الداخلي إلى صحن رئيسي وممرين جانبيين، ويستخدم في بناء معظم البازيليكات طوب عادي أو حجر أما من الداخل فإنها تزدان بالفسيفساء والتصوير الجصي (الفريسكو)، وتتكون الفسيفساء من قطع من الزجاج والرخام أو الحجر تُجمع معًا وتشكل صورة أو تصميمًا ما، والتصوير الجصي لوحات تنقذ على الجص الرطب.

2. العمارة البيزنطية.

في عام 330 م، نقل الإمبراطور قسطنطين الأكبر عاصمة الإمبراطورية من روما إلى مدينة بيزنطة فيما يُعرف الآن بتركيا، وغيّر اسم بيزنطة إلى القسطنطينية. وفي عام 395 م، انقسمت الإمبراطورية الرومانية إلى شطرين: الإمبراطورية الرومانية الشرقية، والإمبراطورية الرومانية الغربية. وقد سقطت الإمبراطورية الرومانية الغربية في يد القبائل الجرمانية في القرن الخامس الميلادي، ولكنّ الإمبراطورية الرومانية الشرقية بقيت وعُرِفَت بالإمبراطورية البيزنطية.

وبحلول القرن السادس الميلادي، تطور طراز فريد من الفن البيزنطي. وكانت كاتدرائية أياصوفيا بقبتها الضخمة (532 . 537م) في القسطنطينية أروع إنجازات العمارة البيزنطية، وقد صممها أنثيميوس أوف تراليس وإسيدروس أوف ميليتوس. واستولى الأتراك على القسطنطينية عام 1453 م، وأعادوا تسميتها فيما بعد بإسطنبول، وحولوا أيضًا كاتدرائية أياصوفيا إلى جامع. وكان التغيير الوحيد الذي قاموا به في المظهر الخارجي للمبنى هو إضافة أربع مآذن، وكان لجامع أياصوفيا قبة مركزية ضخمة ترتكز على قاعدة مربعة، وقد صار هذا التكوين سمة عامة للعمارة البيزنطية، وتحمل القبة أربعة مثلثات كروية معكوسة مبنية بالطوب، وتسمى هذه الركائز المعلّقات. ويستطيع المعماري بناء قبة أعرض وأعلى عما كان ممكنًا عندما كانت الجدران تحمل القبة، وفي داخل أياصوفيا ممرات معقودة بارتفاع طابقين تحيط بالصحن الرئيسي، وقد زُيّن الداخل بزخارف جميلة من الفسيفساء، وتمثل الفسيفساء أهم الزخارف في معظم الكنائس البيزنطية.

وهناك أمثلة أخرى للعمارة البيزنطية تشمل بازيليكا القديس مارك (منتصف القرن الحادي عشر الميلادي) في مدينة البندقية بإيطاليا، وكنيسة القديس باسيل (1554.1560م) في موسكو.

3. العمارة الكارولنجية:

سميت العمارة الكارولنجية على اسم شارلمان الذي كان ملكًا على الفرنكيين (الفرنجة) بين عامي 768 و 814 م. ومن عاصمته في موقع آخر حاليًا في ألمانيا الغربية، حكم شارلمان مساحات شاسعة شملت معظم أوروبا الغربية.

أراد شارلمان وعائلته إحياء الثقافة المسيحية المبكرة في روما، وادعى المعماريون الكارولنجيون أنهم نقلوا عمارة المسيحية المبكرة، ولكنهم غيروا في النماذج حتى تناسب احتياجاتهم، وكانت لهم إسهامات شهيرة فيما يخص تصميم الكنيسة والدير، فقد اتبع المعماريون المسقط الأفقي للبازيلقا ولكنهم أضافوا أماكن للصلاة وأضرحة مطورة وأبراجًا عالية وابتكروا أيضًا مدخلا يعرف بالعمل الغربي

(وستويرك) ضم ردهة ومصلى وأبراجًا صغيرة تسمى التورتات. طوّر الرهبان الكارولنجيون مسقط الدير الذي ترتبط به الكنيسة والمكتبة والمطبخ ومرافق أخرى بممرات مغطاة.

4. عمارة الرومانسك:

بدأت هذه العمارة أواخر القرن التاسع الميلادي، وحققت أعظم إنجازاتها في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين. وأكثر مباني الرومانسك أهمية هي الكنائس التي صُممت في إيطاليا أولاً، ثم في فرنسا وألمانيا وإسبانيا وإنجلترا أخيراً.

وابتكر العلماء في القرن التاسع عشر الميلادي مصطلح الرومانسك الذي يعني: مثل الرومان. ويعتقد هؤلاء العلماء أن عمارة الرومانسك هي أساساً انعكاساً للتصميمات الرومانية، ومع ذلك فإن عمارة الرومانسك هي في الواقع مزيج من العمارة الرومانية والبيزنطية وأنواع أخرى. وتختلف كنائس الرومانسك نوعاً ما من بلد لآخر، ولكن معظم الكنائس تشترك في ملامح معينة، فكنيسة الرومانسك النموذجية لها جدران سمكية وأعمدة مبنية متقاربة وعقود ضخمة مقوسة، ويرتفع برج من السقف عند النقطة التي يتقاطع فيها الجناح الرئيسي مع الصحن الرئيسي للكنيسة، وتحمل البرج أربع ركائز تسمى الدعائم، وهناك عقود محمولة على أعمدة تفصل الصحن الرئيسي عن الممرين الجانبيين، وقد بُنيت شرفة داخلية تطل على الممر الجانبي المعقود تسمى ترايفوريم (رواق ثلاثي العقود)، ويعلو الشرفة إضاءة علوية من خلال صف من النوافذ في داخل عقود.

وخلال فترة الرومانسك، جاء كثير من الناس إلى هذه الكنائس للزيارة، وكانت مجموعات من الزوار تسافر محترقة أوروبا وفلسطين لزيارة الكنائس التي كانت تحتوي على رفات وممتلكات بعض القديسين. وكانت الكنائس المهمة ضخمة جداً تستطيع أن تستوعب أعداداً كبيرة، ومثال ذلك كنيسة سانت سرنين (حوالي 1080 - 1120 م) في تولوز بفرنسا، تضم هذه الكنيسة جناحين على جانبي الصحن الرئيسي، وتفتح على الممر الدائري المحيط بالقوسرة مصليات صغيرة، ويسمح هذا المسقط للزوار بالتحرك خلال المبنى على طول الممرات دون إزعاج للمراسم التي تقام عند المذبح الرئيسي (انظر: فن العمارة الرومانسكي).

5. العمارة القوطية:

ازدهرت في غربي أوروبا في الفترة الممتدة بين منتصف القرن الثاني عشر والقرن الخامس عشر الميلاديين. وكلمة قوطي أصلها مصطلح اشتُقَّ من كلمة تعني الرُّفُض، واستخدمها الفنانون والكتاب في القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين، الذين أرادوا إحياء

العمارة الكلاسيكية لقدماء الإغريق والرومان في أوروبا. وقد اقترن الطراز القوطي بالقوط وبالشعوب الجرمانية التي دمرت كثيراً من الفن الكلاسيكي في القرن الخامس الميلادي، وعارض كثير من الفنانين والكتاب التصاميم القوطية المعقدة وغير المنتظمة التي اختلفت كثيراً عن النمط الكلاسيكي المتناسق. وقد مكن نظام تشييد جديد للمعماريين القوط من تصميم كنائس بجدران رقيقة ودعامات أخف من تلك التي كانت في كنائس الرومانسك، وكثير من الدعامات مكونة من مجموعات من الأعمدة بارتفاع عدة طوابق، وقد مد المعماريون القوطيون الدعامات إلى السقف، ثم قوّسوا كل عمود في شكل أضلاع مثل المظلة المفتوحة، وسدوا الفراغات بين الأضلاع بالحجر، وكانت تلك الأقبية المضلعة ضمن أهم الخصائص التي تميزت بها العمارة القوطية. وهناك مظهر آخر للطراز القوطي هو العقود المدببة والاستعاضة عن أجزاء كبيرة من الجدران بنوافذ ذات زجاج ملون، وكان لمعظم الكنائس دعامات طائفة، وهي دعامات على هيئة عقود بشكل متعامد من الطوب أو الحجر تُبنى على الجدران الخارجية. نحت المثالون أشكال القديسين وأبطال المسيحية على أعمدة مداخل الكنيسة. وقد اعتقد النصارى في القرون الوسطى بأن هؤلاء القديسين والأبطال سكنوا مبنى الكنيسة ودعّموه.

العمارة الإسلامية

1. تعريف العمارة الإسلامية:

هو كل بناء بناه المسلمون حيثما حلوا، وهي العمارة التي نشأت بفضل الإسلام وذلك في المناطق التي وصلها. وتأثرت خصائص العمارة الإسلامية وصفاتها بشكل كبير بالدين الإسلامي والنهضة العلمية التي تبعتها. وتختلف من منطقة لأخرى تبعاً للطقس والإرث المعماري والحضاري السابق والظروف السياسية والمعيشية والثقافية للسكان في المنطقة، حيث ينتشر الصحن المفتوح في الشام والعراق والجزيرة العربية بينما يختفى في تركيا نتيجة للجو البارد وفي اليمن بسبب الإرث المعماري.

2. مفهوم العمارة الإسلامية:

العمارة هي وعاء الحضارة، وهي تمثل بالخلاصة الهوية الثقافية والمستوى الإبداعي والجمالي للإنسان. وهناك مجالان رئيسيان للتعرف على ماهية العمارة الإسلامية.

• **المجال الأول معماري وعاطفي**، يعتمد على ثلاثة محاور نظيرية في تعريف الحضارة الإسلامية، الأول هو المحور الشكلي الذي يختزل العمارة الإسلامية في أشكالها المعمارية والزخرفية الأكثر رواجاً تعطي لها وظائف خصوصية إسلامية نجد مرتكزاتها في فكر إسلامي موحد الجذور والمظاهر والمآرب وفي مناخ ديني واجتماعي مشترك.

أما المحور الثاني فهو روحاني صوفي الذي يرى في التاريخ المعماري الإسلامي انعكاساً مباشراً لنظريات تصوفية تعود لأعمال الصوفيين العظام من القرون الوسطى كابن العربي وجلال الدين الرومي دون أي إثبات تاريخي على أن الأفكار والمبادئ والإرهاصات الصوفية قد أثرت في شكل العمارة ومضمونها وزخرفها.

المحور الثالث بيئي والذي يرى في الابداعات الإسلامية - الشعبية والريفية خصوصاً - ارتباطاً ببيئتها وردود فعل خلاقة لمعطيات هذه البيئة من حرارة زائدة وطقس جاف وندرة في الماء والخضرة، وعلى الرغم من أن السمة المناخية سائدة في غالبية مناطق العالم الإسلامي إلا أنها ليست مطلقة.

تتقاطع هذه المحاور الثلاثة لتعطي التعريف الأكثر رواجاً في الوقت الحاضر للعمارة الإسلامية الذي يركز على الأشكال المميزة للنماذج التاريخية وعلى البعد الروحاني الصوفي وعلى استجابة بيئية عضوية للمناخ الصحراوي الحار والجاف تحديداً.

• أما المجال الثاني فهو أكاديمي محاييد يعتمد على البعدين التاريخي والجغرافي، فتاريخ العمارة الإسلامية يمتد ما بين القرن السابع وبداية القرن التاسع عشر الميلادي منذ ظهور الإسلام وحتى عصر الغزو الأوروبي لمعظم الأراضي الإسلامية وهيمنة الحضارة الغربية الحديثة على أوجه الإنتاج الفني والثقافي كافة بعد زوال الاستعمار في أواخر عصر التحرر الوطني..

أما البعد الجغرافي فيرى أن العمارة الإسلامية هي مجمل المباني والمنشآت التي تحفل بها مدن العالم الإسلامي ومناطقه بما فيها تلك التي شكلت يوماً ما جزءاً منه. ويجدر الانتباه إلى أن عمارة المسلمين كانت نتاج لحاجاتهم البيئية والاجتماعية، ممتزجة مع الفكر الديني الذي يحرك السجاياء ويتطور مع الزمن بحسب المتغيرات.

3. فقه العمارة الإسلامية:

قدم علماء الفقه إلى الأمة الإسلامية من خلال فقه العمارة دليلاً واضحاً على تفاعل الدين الإسلامي مع شتى مناحي الحياة. واعتمدوا في ذلك في إصدار أحكام البنين على أية في القرآن الكريم من سورة الأعراف لقوله تعالى:

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ ١٩٩

ويفسرون العرف بما جرى عليه الناس، وارتضوه، ولم يعتزوا عليه، طالما لا يتعارض ذلك مع القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف. فالعرف يحتل ثلاثة معاني: الأول: هو ما بقصده الفقهاء في استنباط الأحكام في ما ليس فيه نص من المسائل العامة. الثاني: هو اقرار الشريعة لما هو متعارف عليه بين الناس لتحديد الأملاك والحقوق. والثالث هو الأنماط البنائية، فعندما يتصرف الناس في البناء بطريقة متشابهة نقول بأن هناك عرف بنائي.

4. أشكال العمارة الإسلامية:

*المساجد:

المساجد أول شيء بناه المسلمون من العمارة، فقد بنوا المساجد قبل أن يبنوا القصور أو القلاع أو المدارس، ومن هنا كان المسجد الدعامة الأولى لنشأة فن العمارة الإسلامية، ورسالة المسجد في الإسلام لا تقتصر على الصلاة والعبادة فحسب، فمسجد الرسول صلى الله عليه وسلم رغم بساطة البناء كان بمثابة مدرسة للعلم والتربية ولمان للأمة تعقد فيه الانتخابات (البيعة) للخليفة، وتدار فيه الاجتماعات السياسية والعسكرية، وكان فيه أيضاً عيادة للتمريض هي (خيمة رفيده)، وفي ساحته كان نساء الصحابة يتركن

أطفالهن في أمان بعد الصلاة ريثما يقضين حاجتهن من الأسواق، فكان أيضاً دار حضانة وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يطلق على هؤلاء الأطفال "حمام المسجد".

وقد بنى المسلمون جوامع ضخمة بنفس الأهداف، تشمل مسجداً مستقلاً للصلاة ويلحق به المدرسة أو الجامعة، وأيضاً المستشفى ومكاتب الإدارة، ومن ذلك جامع القيروان سنة 670م وجامع الزيتونة سنة 734م وجامع الأزهر 972م. وتصميم المسجد عبارة عن ساحة كبيرة فيها منبر خشبي للخطبة، ثم أدخل المحراب المجوف للدلالة على اتجاه القبلة، ثم ظهرت الإيوانات وهي أروقة تحيط بصحن المسجد ولها أقواس مقامة على أعمدة، وملحق بالمسجد غرفة للإمام ومكتبة، وعادة يكون للمسجد ساحة داخلية مكشوفة بها نافورة لتلطيف الهواء وميضأة للوضوء، هذا علاوة على القباب والمآذن.

ويعتبر المسجد الأموي في دمشق سنة 710م أول نجاح معماري في الإسلام بناه الخليفة الوليد بن عبد الملك، فقد كان بناءً جديداً في تصميمه، له طابعه الخاص وشخصيته المستقلة عن المعمار في الحضارات السابقة للإسلام.

وفي أنحاء العالم اليوم الكثير من المساجد الأثرية الشهيرة التي تنوعت، فهناك المساجد الأموية في الشام والعباسية في العراق والأندلسية في الأندلس والفاطمية في الشمال الإفريقي ومصر، وفي إيران هناك المغولية والصفوية، ثم هناك مساجد الهند والمساجد العثمانية في تركيا.

وهذا الاختلاف في المظهر يزيد العمارة الإسلامية ثراءً وعمقاً، ولكنه لا يشمل اختلافاً في الجوهر، وقد راعى المعمارون في بناء المساجد الفخمة مسألة الصوت لتوصيل الخطبة إلى آلاف المصلين والضوء والتدفئة والتبريد كل ذلك بالوسائل الطبيعية.

*القصور والبيوت:

كان عرب الجاهلية وصدر الإسلام سكان خيام، وكانت بيوتهم تتسم بالبساطة والبدائية، ومع اتساع الفتوح والاستقرار في بلاد الحضرة والماء ومع الرخاء الزائد ابتدوا في بناء القصور الفاخرة، وللبيت العربي عمارته المميزة وأقسامه الثابتة رغم اختلاف العصور والبلدان، فإنه ينقسم في تأسيسه إلى ثلاثة أقسام رئيسية: قسم خارجي ويسمى (الحواصل)، وفيه مركز الحرس والسائس والخيل والعربات، وقسم أوسط ويتضمن القاعات المهمة للاستقبال والجلوس والطعام، والقسم الثالث وفيه غرف النوم وقاعات الحريم. وأغلب البيوت العربية ذات واجهات صماء خالية من النوافذ الخارجية، بحيث لا يتبين المشاهد روعة العمارة والزخرف إلا بعد أن يدخل صحن البيت، حيث تواجهه ساحة مفتوحة للسماء تتوسطها فسقية كبيرة يتدفق إليها الماء من نوافير على أشكال حيوانية،

ويحيط بالبركة أشجار الليمون والبرتقال والفن والياسمين بعطورها الفواحة، ويحيط بهذه الساحة غرف البيت من كل جانب، وغالبا ما تكون من دورين أو ثلاثة أدوار، وترتفع جدران الغرف إلى أكثر من خمسة أمتار.

وتطل الغرف على الساحة من خلال مشربيات من الخشب المزخرف المطعم بالعاج، ولها نوافذ تسمى بالشمسيات والقمريات، وقد بلغ عدد الغرف في بعض قصور بني أمية ما يزيد عن الثلاثمائة غرفة، وأهم غرف القصر هو الإيوان، ويبلغ ارتفاعه ضعفي ارتفاع الغرف العادية وفي سقفه قبة دائرية، وفي كل قصر أيضا قاعات صيفية في الجهة الشمالية تُبرّد بالنوافير المائية وملاقف الهواء. وقد وجد في هذه القصور ملاعب وساحات ومخازن تسمى بالخزائن، منها خزائن الكتب، وكان في قصور الفاطميين أربعون غرفة، ثم خزائن الكسوات الصيفية، وخزائن الجواهر والطيب، ثم خزائن الأشربة - أي الأدوية. وكانت القصور تزخر بالفن المعماري والزخرف الإسلامي الذي يشمل الأرض والحوائط والسقوف، وتحلّى بآيات قرآنية تزين جدران البيت من الداخل والخارج، وأغلبها يُذكر أصحابه بالتواضع لله والشكر له على نعمائه.

*مرافق الخدمات العامة:

عملا بأوامر الإسلام التي تحث على إيصال الخدمة العامة وتيسيرها للرعية، والمساواة بين الغني والفقير في حق الرعاية، فقد اهتم الحكام المسلمون بمؤسسات الخدمة العامة اهتماما كبيرا وخاصة المستشفيات والاستراحات والمطاعم الشعبية والحمامات الشعبية، فكانت تلك المرافق أشبه بقصور الأثرياء من حيث الفخامة المعمارية والزخرف الإسلامي. وقد بنى الخلفاء الاستراحات الفاخرة لحجاج بيت الله على طول الطريق من أي بلد إسلامي حتى مكة، وفي الاستراحة مطعم شعبي بالمجان وحمام وغرف للمبيت، وكان بعض الخلفاء مثل هارون الرشيد يتخفى في زي تاجر ويأكل مع الشعب في المطعم ليرى نوع الخدمة بنفسه.

وتتجلى التقنية الإسلامية في الحمامات، فالمسلمون أول من أنشأ في مدينتهم شبكة مياه في مواسير من المعدن توصل الماء بانتظام إلى الحمامات الشعبية وإلى البيوت، وفي الحمامات غرف للبخار (السونا)، وغرف للعلاج الطبيعي (التدليك)

*الرباطات والقلاع والحصون:

من الأشياء اللافتة للنظر أن المسلمين لم يهتموا كثيرا بعمارة القلاع التي استولوا عليها من الرومان في الشام ومصر وإفريقيا، ولم يهتم المسلمون بسكناها أو تعميمها، والسبب في ذلك أن المسلمين لم يكونوا في البلاد المفتوحة كغزاة أو مستعمرين أو حكام غرباء

حتى يتحصنوا من أهلها، وتحضرنا هنا كلمة للخليفة عمر بن عبد العزيز عندما طلب أحد الولاة منه أن يبني حصنا في الولاية لحمايتها فقال له: "حصنها بالعدل، وكفي بالعدل حصنا."

من الأشياء اللافتة للنظر أن المسلمين لم يهتموا كثيرا بعمارة القلاع التي استولوا عليها من الرومان في الشام ومصر وإفريقيا، ولم يهتم المسلمون بسكناها أو تعميرها، والسبب في ذلك أن المسلمين لم يكونوا في البلاد المفتوحة كغزاة أو مستعمرين أو حكام غرباء حتى يتحصنوا من أهلها، وتحضرنا هنا كلمة للخليفة عمر بن عبد العزيز عندما طلب أحد الولاة منه أن يبني حصنا في الولاية لحمايتها فقال له: "حصنها بالعدل، وكفي بالعدل حصنا."

5. العوامل التي تأثرت بها العمارة الإسلامية: هناك عدد من العوامل تأثرت بها العمارة الإسلامية منها:

- الفتوحات الإسلامية في بلاد متحضرة شرقاً وغرباً.

- اتساع نطاق الإمبراطورية الإسلامية من الهند إلى الأندلس.

- وحدة العقيدة الدينية، والبواعث الدينية والنظم السياسية والاجتماعية والتشريعية التي أوجدها الإسلام، ومفهوم كل شعب منها.

- فنون الأمم العربية التي استوطنت أطراف الجزيرة ومجاورتها للأمم المتمدينة، وتأثير فنون هذه الأمم على فنون العمارة، وظهور الطراز المعماري الأول في سوريا، حيث أقام الأمويون دولتهم، فتأثرت عمارته بعمارة الفن البيزنطي، ما نقله أحمد بن طولون من أساليب العمارة إلى مصر عند تأسيس الدولة الطولونية، الاقتباس من فنون الأمم التي أصبحت تحت حكم العرب مع صبغها بالروح الإسلامية وبقاء صبغها محلياً، واستخدام الصناعات من مختلف البلاد وتأثير مهارتهم على الفنون الإسلامية.

- انتشار الوعي الثقافي العربي عبر العالم بأسره بسرعة مذهلة أثارت الدهشة.

- اختلاف الطقس والمناخ.

- الامتزاج بين الثقافة الإسلامية والعقائد المحلية في بلاد فارس.

- وكان لغيرة المسلمين -النابعة من تعاليم الإسلام- على حرمتهم ونسائهم، أثرها في تصميم واجهات المنازل، حيث كانت نوافذ

البيوت قليلة وعالية، لتكون بعيدة عن أعين المارة، وابتكرت المشربيات، وكان يُصمم انكسار في مدخل البيت لينحني الداخل، ثم يتجه نحو ممر آخر، ومنه يدخل إلى فناء المنزل.

6. خصائص العمارة الإسلامية:

رغم تأثر العمارة الإسلامية بالحضارات التي سبقتها إلا أنها احتفظت بخصائص ميزتها عن غيرها، حيث تأثرت بشكل كبير بالدين الإسلامي والنهضة العلمية التي تبعتها، ومن هذه الخصائص:

لم يقتصر البناء الإسلامي على خاصية الإبحار التي ميزته عن غيره من فنون البناء والمعمار، حيث الشكل المتختم بالزخارف

والزركشات والنقوش، بل تعداه إلى نوع آخر يعبر عن عظمة الإنسان المسلم، فكان له سبق الاختراع لأول ناطحات سحاب في العالم، ورغم بساطة مكوناتها المتمثل بالقش والطين اللازب إلا أنها مازالت تقاوم بكبرياء كل متغيرات الحياة حتى وقتنا الحاضر.

الحوائط الخارجية: كانت الحوائط الخارجية عادة قليلة الفتحات المطلة على الطريق العام، ولذلك اهتم العرب بتصميم الأفنية الداخلية والعناية بها، وجعل الفتحات الهامة الرئيسية تطل على هذه الأفنية من الداخل.

المدخل والفتحات: كانت المدخل عبارة عن فتحات عميقة مستطيلة في المسقط الأفقي، عمقها يقرب من نصف عرضها، وتحتل

معظم ارتفاع المبنى وتنتهي بعقد مخصوص، وكثيراً ما توضع هذه الفتحة في بانوه على جانبه عمودان وأعلاه حلقة زخرفية على شكل

شرفة، أما الفتحات فكانت أعمال النجارة تأخذ أشكالاً هندسية بديعة مفرغة تحتوى على الزجاج الملون، وخاصة الفتحات

العلوية في المبنى، التي وضعت على شكل شرفات مصنوعة من الخشب المجمع المعروف بأشغال المشربيات، والتي تعتبر من أهم

7. العناصر المعمارية في العمارة الإسلامية.

عرفت العمارة الإسلامية أنواعاً مختلفة من العقود، وكان من العقود التي استعملت في العمارة الإسلامية بوجه عام ما يأتي:

عقد على شكل حدوة الحصان، وهو عقد يرتفع مركزه عن رجلي العقد، ويتألف من قطاع دائري أكبر من نصف دائرة.

العقد الخموس، وهو يتألف من قوس ودائرتين وهو مدبب الشكل.

العقد ذو الفصوص، استعمل خصوصاً في بلاد المغرب ويتألف من سلسلة عقود صغيرة.

العقد المزين باطنه بالمقرنصات، شاع استعماله في الأندلس ولا سيما قصر الحمراء وبلاد المغرب.

العقد المدب المرتفع، استعمل بكثرة في إيران ونجد منه أمثلة في مسجد الشام واستعمل أيضاً في مساجد مصر.

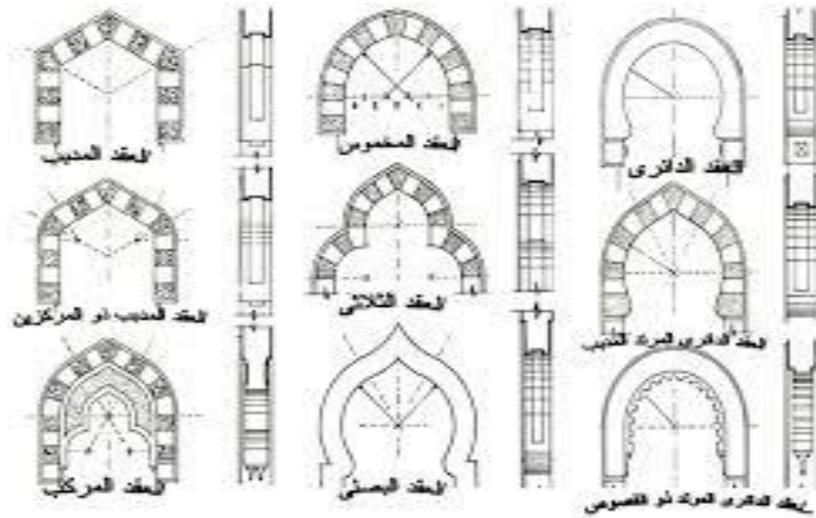
_ الحلبيات والزخارف والمقرنصات:

هي حلبيات معمارية تشبه خلايا النحل، استعملت في المساجد في طبقات مرسومة وتستعمل في الزخرفة المعمارية أو بالتدرج من شكل إلى آخر وخصوصاً من السطح المربع إلى السطح الدائري الذي تقوم عليه القباب. وقد ظهرت المقرنصات في القرن الحادي عشر، ثم أقبل المسلمون على استعمالها استعمالاً عظيماً حتى صارت من مميزات العمارة الإسلامية في واجهات المساجد والمسكن وتحت القباب وفي تيجان الأعمدة وفي الأسقف الخشبية اختلفت أشكالها باختلاف الزمان والمكان.

تعود نشأة المقرنصات إلى بداية انتشار استخدام المثلثات الكروية المتدلية **pendentives** في أركان الفراغ المعماري كعنصر إنشائي للوصول إلى التغطية القبية وأنصافها، إذ يرجع الفضل في ابتكارها وتطورها إلى العرب الساميين، ليتمّ بوساطتها الانتقال والتحول من الشكل المربع إلى المستدير «الدائرة» لترتكز على الحافة السفلى للقبة. ومن الأمثلة المهمة في بلاد الشام لقباب محمولة على مثلثات كروية **spherical triangles**، من نهاية القرن الثاني وأوائل القرن الثالث الميلادي مقرنصات

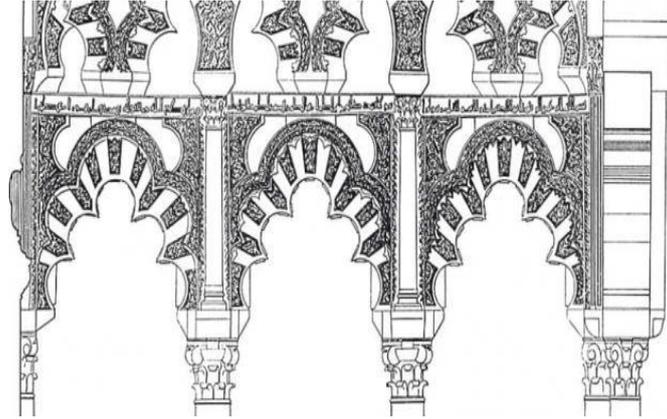
قصر

النويجس بالقرب من عمّان، وفي حمام بالقرب من البتراء (الأردن). ولقد سميت المثلثات الكروية بالطاقة المفردة أو عقد الزاوية، وثمة عدد من الأمثلة على استخدامها في العهد الساساني في آسيا الوسطى، تعود إلى القرن الثالث م.



– الأعمدة والتيجان:

استعملت في البداية أعمدة كانت تنقل من المعابد والكنائس والعمائر المزينة، ثم اكتسبت العمارة الإسلامية أعمدة وتيجان مبتكرة سميت أعمدة ذات البدن الأسطواني وذات المضلع تضليع حلزوني، وذات البدن المثلث الشكل. وكانت الأعمدة في بعض الأحيان تؤخذ من مباني بعض أطلال الأبنية الرومانية القديمة أو البيزنطية القديمة لاستعمالها في باقيات المساجد، ومن الطبيعي كان تأثير هذه الأنواع من الأعمدة غريباً في مجموعه.



أما الأعمدة التي ابتدعها فنانون العرب والصناع المهرة في العمارة الإسلامية، فكانت تتميز بأشكال حليتها الشرقية العربية الأصيلة، كانت تمتاز بالبساطة، رفيعة، نسبة ارتفاعها 12 مرة للقطر، لها تيجان جميلة ذات رقبة طويلة وصفحة مربعة مشغولة بالمقرنصات، مع أشغال الأرابسك التي تركز فوقها العقود العربية.

الأعمدة:

وردت الأعمدة عند نبط (البترء) منحوتة في الصخر، وينحت الفرس الأخمينيون تيجان أعمدتهم على شكل ثورين متأثرين بحضارة الثور الواردة من العمارة الآشورية. واستعملت الأعمدة عند اليونان حيث كانت الحكمة ترفع على سبعة أعمدة و اعتبروا الأعمدة في البناء غاية معمارية بحد ذاتها، وتجذلوها بتصميمها وكذلك بتيجانها وقواعدها وتمسكوا بطرزها، وأعتبروها مرجعية في تحديد الطراز. وقد قلدوا الآشوريين في جعل بعض أعمدة البناء على هيئة أنصاب وتمثيل معبرة:

تيجان الأعمدة :

تاج العمود Capital من عناصره التكوينية وهو رأس العمود أو الجزء الذي يتوج أعلاه، وهو يشكل الحالة الإنتقالية من العمود الى الطاق أو الجسر الذي يعلوه. والتاج إما بسيط أو مزخرف، وتختلف زخارفه باختلاف الطابع الفني لكل مدرسة عمارية.

وبالرغم من ذلك فلم تنتقل تلك الطرز بحدافيرها أو حتى انقرضت في فنون الإقليم . فلدينا مثلا تيجان الأعمدة الفرعونية التي اضطلعت بتأثيرات نباتات وأزهار وادي النيل ، ولم تنتقل تلك الطرز الى تيجان الأعمدة في مصر الإسلامية . والحال نفسه لدى الفرس الأخمينيون الذين نحتوا تيجان أعمدتهم على شبه ثورين ، ولم تعمم في التيجان الإسلامية . وأكثر التيجان انتشارا هي التي يقال بأنها نشأت مع العمارة الإغريقية ، والتي في حقيقتها جاءت من مصادر حضارة بلاد الشام ، ولاسيما الفينيقي منه بما دعى (السابق للأيوبي . PreIonic) وعلى العموم يمكن رصد تلك التيجان المتميزة وهي :

- التاج الدوري Doric ونشأ منه تيجان : الدوري الإغريقي ، والدوري الروماني ، وهما طرازان بسيطان إذا ما قورنا بالتيجان الكورنثية أو الايونية.

- التاج اليوني Ionic مزخرف بشكل حلزوني .

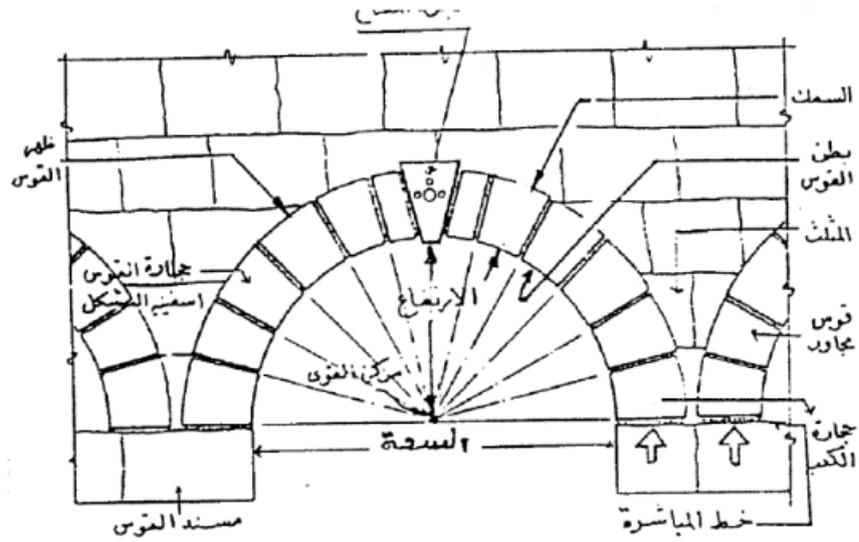
- التاج الكورنثي Corinthian يتشكل تاجه من نسقين من أوراق نبات الأفتنا . Acanthus وهو الأكثر شيوعا ، وظهر

من هذا الطراز تيجان : الكورنثي الإغريقي أو الروماني . واستعمل الرومان في عمارتهم نفس طرز التيجان الإغريقية : الدوري والايوني و الكورنثي ، و أدخلوا عليها بعض التعديلات ، كما طوروا الطراز الدوري فعرف باسم : الدوري الروماني ، وكذلك الطراز الكورنثي الذي عرف بالروماني ، وفي بعض الأحيان كانوا يدمجون الطرز الثلاثة في تاج واحد . وكان للنهج الكورنثي النصيب الأكبر في الانتشار أكثر من غيره ، و نشأ منه نوع مطور نشاهده في أطلال مدينة أفاميا . كذلك ظهر طرازان جديدا هما :

.التوسكاني Tuscan وهو طراز دوري روماني تاجه بسيط غير مزخرف ،وقد عم في عمارة المغرب العربي إبان حروب

(الإسترجاع) التي قامت بين الشاطئين الشمالي والجنوبي للبحر المتوسط في القرون الوسطى، ونقلها البنائون من أسرى الحروب الأوربيين الى تلك الديار.

.المركب Composite نموذج طوره الرومان في حقبة متأخرة ، ويتألف تاجه في نصفه العلوي من الزخرفة اليونانية ، ونصفه السفلي من الكورنثية .



8. العناصر الجمالية في العمارة الإسلامية:

نقصد بها العناصر التشكيلات الزخرفية التي تلعب دورا مهما في تأكيد الهوية المعمارية، وتكسب العمارة طابعها الخاص. أهمها: الرسوم

الهندسية، الزخارف النباتية والزخارف الخطية؛ وتتميز بأسس، وتخضع لقواعد منها:

□ التوازن: ونقصد به التوزيع والتناسق في العناصر والوحدات والألوان والمساحات...

□ التماثل: ونعني به التقابل وظيفته تنظيم التكوينات الزخرفية.

□ التكرار: يتم عبر تكرار عنصر زخرفي متواصل.

* الزخرفة الهندسية الإسلامية:

هي أشكال هندسية من مثلثات، مربعات، معينات، وأشكال خماسية وسداسية ودائرية، وخطوط منكسرة وخطوط متشابكة وأشكال

نجمية.....

بلغ الفن الإسلامي في مجال الزخارف الهندسية مرتبة، لا يدهيه فيها أي فن آخر، ولقد طور الفنانون المسلمون الزخارف الهندسية على أسس مدروسة، وابتكروا الأطباق النجمية.

تعتمد الزخارف الهندسية على الشعور والموهبة وتعتبر صناعة تلقاها المتعلمون عن المعلمين في الفن والمهنة مثل:

المقرنصات Les stalactites

هو شكل هندسي، استعمل في الزخرفة المعمارية. المقرنصات أو الدلايات حليات معمارية تشبه خلايا النحل؛ ظهرت لأول مرة في فارس في العصر الساساني على شكل حوفة مقوسة؛ وتحتل أركان القاعدة المربعة للقبة، وكان دورها يقتصر على تحويل القاعدة المربعة إلى مثمثة، ثم إلى عنق دائري تقوم عليه خودة القبة، وحسب بعض الدارسين للعمارة فقد استعار العرب المقرنصات من الفرس. ظهر استعمال المقرنصات في العمائر الإسلامية في القرن الخامس الهجري (11 م)؛ وتعتبر عناصر زخرفية ميزت الفن الإسلامي.

الشمسيات Les lucarnes, les fenêtres

شمسية أو شمسية fenêtre à claustra نافذة مشبكة من حجر أو رخام أو جبس، مفرغة بزخارف هندسية ونباتية وكتابية، وغالبا ما تملأ فراغاتها بزجاج ملون.

وترجع فكرة ملئ الشبابيك بألواح جبسية أو رخامية مفرغة في تكوينات زخرفية إلى العصر الإسلامي المبكر. ولعل أولى الشماسيات ظهرت في المسجد الأموي بدمشق (القرن الأول الهجري).

الشرفات Les merlons

من العناصر المعمارية التي تبنى في النهايات العلوية الحربية، ثم انتقلت إلى العمارة الدينية والمدنية .

ظهرت الشرفات قبل الإسلام، في العمائر والساسانية والرومانية، ووجدت في قصور الأمويين في كل من بوابة قصر الحير الشرقي وقصر الحير الغربي وقصر هشام.

وتسمى الشرفات بالعرائس، لا تشبه أشكالا آدمية تجريدية، تتلاصق أيديها وأرجلها.

أخذت الشرفات أشكالا متعددة منها: الشرفات المسننة dentèles والشرفات المورقة والشرفات البسيطة.

*الزخرفة النباتية الإسلامية:

من الزخارف الإسلامية الأصيلة التي انفرد بها الفن الإسلامي؛ ونعني بها العناصر الزخرفية المستمدة من النبات، أوراق، أزهار، براعم. يستعمل عفيف البهنسي تسمية بديلة للزخرفة النباتية وهي الرقش النباتي، ويرى أنه تأويل لأوراق النباتات ولذلك أطلق عليه التوريق. تتألف هذه الزخرفة من وحدات زخرفية مكونة من أفرع نباتية محورة وأوراق نباتية ذات فصين، تتداخل وتتشاكل معا بطريقة زخرفية منسقة، تدعو إلى الإغراق في التخيل والتأمل. تمتاز الزخارف النباتية بال تكرار والتشعب والتناظر.

*الزخرفة الكتابية:

اعتمد الفنان المسلم على الكتابة العربية كعنصر زخرفي في كل إبداعاته الفنية منذ العهد الأموي؛ ومع تطور فن العمارة في القرن الرابع الهجري، ساد فن الخط العربي بشكل واسع في العالم الإسلامي.

استعمل الخط في الزخرفة وفي كتابة المصاحف، والنقود والمعالم الأثرية وشواهد القبور والتحف الفنية... وقد نقش على مواد مختلفة كالحجر والرخام والخشب والجبس والمعدن...

و لعب الخط أدوار متعددة: دور وظيفي تسجيل النصوص القرآنية والتاريخية؛ ودور جمالي باعتباره عنصرا زخرفيا مكملا لجماليات العمارة. ولقد ساهم الخط العربي في تأكيد هوية العمارة الإسلامية وإكسابها طابعا مميزا يميزها عن باقي الفنون. وتعددت الخطوط العربية فمنها: الخط الكوفي، والخط النسخي، والخط الثلثي، والخط الفارسي.

هي الخصائص البنائية التي استعملها المسلمون لتكون هوية لهم، وقد نشأت تلك العمارة بفضل الإسلام وذلك في المناطق التي وصلها كشبه الجزيرة العربية ومصر وبلاد الشام والمغرب العربي وتركيا وإيران وغيرها بالإضافة إلى المناطق التي حكمها لمدد طويلة.

مميزات الزخرفة الإسلامية:

جملة من المميزات والخصائص التي تميز الزخرفة الإسلامية نذكر منها المميزات التالية:

- العناية بالتجديد والابتكار والاعتماد على التطوير المباشر دون النقل.
- البعد عن التقليد والتصنع في العديد من الأعمال الزخرفية المختلفة في العمارة والمجالات الأخرى.
- الأصالة في أغلبية الأعمال وهي تعتبر من الأعمال الفطرية لدى الرسام والفنان المسلم .
- المبالغة في استعمال الألوان الفطرية دون الدمج بينهما إلا في بعض الحالات القليلة .

- التأثير الواضح بالعقيدة الإسلامية السمحة حيث نلاحظ والله الحمد عدم وجود الرسوم الزخرفية التي تشمل ذوات الأرواح وعموم الكائنات الحية وخاصة في الرسوم التي بداخل المساجد .

- البعد عن التجسيم حيث لا تستهدف الزخرفة الإسلامية البعد الثالث كما هو الحال في بعض الزخارف في الفنون الأخرى ، ولكنها تركز على بعد آخر وهو البعد أو العمق الوجداني والذي نشاهده بصفة دائمة تقريباً في زخرفة الأبواب الإسلامية المنتشرة في الكثير من المساجد والقصور القديمة وأيضاً الحديثة .

ثم العناصر الزخرفية لعموم الزخرفة الإسلامية والمتمثلة في:

- الزخرفة النباتية . - الزخرفة الهندسية: - الزخرفة الخطية.

9. نماذج من طرز الزخرفة الإسلامية:

تتعدد الطرز والطرائق والأنماط التي تميز كل عصر وزمان عن غيره من الأزمنة وتبعاً لتعدد هذه الطرق كان هذا التنوع في الزخارف الإسلامية :

- الطراز الأموي : ويقف الجامع الأموي نموذجاً من نماذج العمارة الإسلامية الفريدة في هذا العصر .
- الطراز العباسي : تعتبر مدينة سامراء النموذج الواضح لأسلوب الطراز العباسي التي بناها المعتصم
- الطراز المغربي : ولعل أوضح مثال له هو قصر الحمراء بغرناطة بالأندلس .
- الطراز المصري السوري : حيث بلغ فن الحفر والنقش والزخرفة في الأواني والتحف والأشغال الخشبية ذروته في هذين القطرين .
- الطراز الأيوبي : وهو نسبة إلى عصر الأيوبيين الذين حكموا مصر وسوريا ، وانتشر فيه نماذج متعددة من الزخارف
- الطراز المملوكي وهو كذلك في سوريا ومصر حيث انتشرت الكثير من القصور والمساجد والمدارس التي اشتهرت بالأشكال النجمية التي تتبع للزخارف الهندسية .

10. ملامح الفن المعماري والعمراي في أهم العصور الإسلامية:

العصر الأموي: (41-132هـ : 661-740م)

شهد العصر الأموي منشآت معمارية دينية وديوية عدة، أهمها: الجامع الأموي في دمشق وقبة الصخرة والمسجد الأقصى في القدس. وعدّ المسجد الكبير في دمشق أهم منشآت التاريخ الأموي، وهو أول نجاح معماري في الإسلام؛ إذ استطاع الربط بين التقليد المعماري المسيحي بمفرداته المعمارية والصيغة المعمارية الجديدة التي أتت لتنسجم مع وظيفة البناء وروح الدين الجديد، ولقد أثر هذا المبنى في بناء المساجد الإسلامية في مختلف العصور ومختلف مناطق انتشار الإسلام فيظهر ذلك جلياً في مسجد القيروان وجامع الزيتونة في تونس الذي يشبه إلى حدّ كبير جامع القيروان.

كذلك أشاد الأمويون القصور في بادية الشام لممارسة الصيد، ففيها بقايا نحو 30 قصراً، أهمها قصر الحير الشرقي، وقصر الحير الغربي، وقصير عمرة، وقصر المشتى، وقصر خربة المفجر.

تميز قصير عمرة في الأردن باحتوائه على الرسومات الجدارية التي تمثل صوراً بشرية وحيوانية يعتمد عليها بعض الباحثين دليلاً على عدم صحة نظرية تحريم الصورة في الإسلام.

التأثيرات المعمارية في الأندلس:

دخل المسلمون الأندلس عام 93هـ/711م وأصبحت ولاية أموية عاصمتها قرطبة Cordoba، واتخذ عبد الرحمن الناصر لقب خليفة. بدأ عبد الرحمن الداخل بتشيد المسجد الكبير في قرطبة الذي استكمل في عهد لاحق وأضيفت إليه العقود الحدوية والعقد المفصص الذي يُعد إحدى ابتكارات عصره، واستخدمت الشرارييف في تزيينه وهي عنصر تزييني في أعلى البناء، ظهر في العمارة الشرقية ثم مالبت أن انتشر في إسبانيا. اشتهرت عمارة هذا المسجد بأقواسه ذات النمط المعماري المعتمد على الثنائية المؤلفة من صف أقواس حدوية يعلوها صف آخر من الأقواس الحاملة للسقف. ويتداخل فيها الحامل والحمول في ثنائية جدلية متكررة بمنظور perspective بلا نهاية. وقد استخدموا الحجر والرخام والآجر. كما أن هذه الثنائية ظهرت في تناوب اللونين الأحمر والأبيض في الأقواس التي دامت لاحقاً سمة من سمات العمارة الإسبانية.

انتقل استخدام هذه الأقواس والتناوب اللوني فيها إلى العمارة المسيحية، وظهر ذلك في الكنائس، ولاسيما في العمارة الرومية والقوطية Gothic التي تأثرت بالأقواس الأندلسية، انتقلت عبر الحجاج المسيحيين من إسبانيا إلى فرنسا ومنها إلى أماكن أخرى، وتعدّ أبراج الأجراس في الكنائس الرومية والقوطية تقليداً للمأذنة الرباعية الشكل؛ التي انتقلت من المسجد الأموي بدمشق. وهناك الأقواس

والقبوات المتصالبة groined vaults وأركان القباب والتيجان النباتية إضافة إلى الزخرفة العربية في أعمدة مواساك وفي باب كنيسة بوي، وفي واجهات العديد من الأبنية في غربي فرنسا.

العصر العباسي: (132-358هـ: 749-968م)

تبلورت المدرسة الإسلامية في مجال تخطيط المدن، وشُيّد في هذا العصر العباسي مدن عدة مثل بغداد وسامراء والرقّة. وبنيت المساجد كمسجد سامراء، ومسجد أبي دلف الذي يبعد نحو 15 كم شمالي سامراء، ومسجد ابن طولون في القاهرة. كما بنيت القصور ومن أهمها قصر الأخيضر جنوبي بغداد والجوسق الخاقاني في سامراء، وقصر بلكوارا قرب سامراء، ويتميز هذا القصر بتعدد الفناءات فيه، واحتوائه على أكثر من قاعة عرش، وباتساع حديقته واحتوائها على مرسى للزوارق على نهر دجلة.

تميزت المباني العباسية بتنوع أساليب الزخرفة فيها، فاستخدمت الفسيفساء mosaic والخشب المحفور، والتقطيعات الرخامية والطينية المطلية بالمينا وبلاطات القيشاني faience وتنوعت أشكال الأقواس من نصف أسطوانية ومدببة ومفصصة وحدوية، كما أصبح الإيوان عنصراً معمارياً مهماً في المباني العامة.

وامتد تأثير فن سامراء إلى صقلية حيث تبدو تأثيراته في الرسوم الجدارية التي تزين سقف كنيسة القصر chapel في باليرمو، التي حكمها المسلمون (212 - 453هـ/827 - 1061م) ومن بعدهم النورمانديون، الذين تبنا كثيراً من التقاليد الإسلامية. ويظهر ذلك جلياً من الكتابات العربية التي تزين سقف كنيسة القصر إضافة إلى التاريخ الهجري المدونة به.

العصر العبيدي الفاطمي (359 . 468هـ/969 . 1075م)

كانت مصر مقراً للخلافة العبيدية الفاطمية مدة قرنين (973 . 1171م)، ويُعد الجامع الأزهر بالقاهرة أحد أهم المباني الدينية الفاطمية حيث تمتزج فيه تأثيرات العمارة الإغريقية التونسية مع المدرسة المحلية. وكذلك مسجد الحاكم بأمره، الذي يحمل اسمه. أما جامع الأقرم فتشكل الأشكال الصدفية للحنايا والتضليعات الموجودة في واجهته أول مثال للمقرنصات الزخرفية في مصر، ثم أصبحت تزين المآذن لاحقاً.

على صعيد العمارة المدنية لم يبق من القصور الفاطمية سوى أوصافها التي تدل على فخامتها. وفي الجزائر بنى عمال الفاطميين القلاع، مثل قلعة بني حماد، وقصر دار البحر؛ الذي يتميز ببركته الواسعة التي شبهت بالبحر، وقصر المنار وهو أشبه بقلعة تتجلى فيها

التأثيرات الرافدية في عمارة تلك القصور. وأهم العناصر المعمارية المميزة لهذا العصر المحاريب والأقواس المسدودة والمشاكبي والمقرنصات والخزف والتطعيم بالغضار المطلي بالمينا، ويعد العصر الفاطمي عصر ترسيخ فن الرقش الإسلامي.

العصر السلجوقي

سادت الأسرة السلجوقية بغداد عام 447هـ/1055م، ودام حكمها حتى 569هـ/1174م، ومن أهم المباني الدينية السلجوقية المسجد الكبير في أصفهان ذو المخطط المصلب المستوحى من العمارة المدنية، ويتميز بالأواوين الأربعة المطلة على الصحن، وقد أصبحت فيما بعد الطابع المميز للمساجد الإيرانية.

أدخل السلاجقة الضريح mausoleum إلى جانب الجامع، وهو قبر tomb على شكل برج أو قبة إما ملساء أو محززة. وقبة ضريح السيدة زبيدة في العراق، وهي هرمية الشكل ثمانية الأضلاع، ومشابهة تماماً لقبة بيمارستان نور الدين الزنكي في دمشق. اهتم السلاجقة ببناء المدارس معاهد لتعليم الفقه والدين، كما اهتموا بالعمارة العسكرية؛ إذ تعود أصول قلعة دمشق للفترة السلجوقية. أهم مميزات العمارة السلجوقية: مداخلها ذات الارتفاعات المنخفضة والمؤلفة من قوس مدبب متجاوز، واحتواؤها على أواوين تطل على الفناء من الجهات الأربع، إلا في حال وجود الحرم فتضم ثلاثة أواوين، ويتوسط الفناء عنصر مائي، وتغطي الفراغات قباب محمولة على حنايا ركنية أو مقرنصات، وتتنوع أشكال التغطية من قبوات ذات أشكال نصف أسطوانية وقبوات متصالبة وقباب، وتزين الأبنية الكتابات، وقد أدخلوا الخط النسخي أو الثلث للمرة الأولى، كما تطور فن النقش بأنواعه المختلفة، وفي إيران استخدموا الأجرّ بوضعيات غائرة ونافرة ومدماميك تتخللها درجات لونية مغايرة من أجل الزخرفة.

العصر الأيوبي (569 . 658هـ/1174 . 1260م)

أنهى صلاح الدين الأيوبي -رحمه الله- خلافة الفاطميين وحارب الصليبيين، واهتم بالحياة والعمارة العسكرية، ويعُدُّ فن العمارة الأيوبية امتداداً للعمارة السلجوقية سواء في مصر أم في سورية. تم توسيع المدن وتجديد الأسوار وتشبيد القلاع (كقلعة دمشق) والمباني العامة الدينية والمدنية والمساجد والمدارس (كالمدسة العادلية الكبرى بدمشق) والخانقاهات والأضرحة. واستخدموا الحجارة الكبيرة ذات البطن المنتفخ، وتطور نظام استخدام القباب من حيث الارتفاع ونقاط الارتكاز، وطغى على مبانيهم سمة التقشف والبساطة التي تجلّت في المساقط المعتمدة على الباحة المربعة التي تتوسطها بركة ماء. واقتصرت الزخارف في المباني على أماكن

محدودة في الأشرطة الزخرفية فوق مداخل الأبواب وإطارات النوافذ، وظهرت عناصر زخرفية جديدة تعلو مداخل الأبنية وهي الرنوك (الرموز، شعارات)، وقد أصبحت هذه المداخل أكثر ارتفاعاً يعلوها عقد مقرنص أو ذو قبتين صغيرتين.

العصر المملوكي (658. 992هـ/1260. 1516م)

حكم المماليك مصر والشام والجزيرة واليمن والحجاز وليبيا، وظهر تبادل التأثيرات العمرانية والمعمارية في مناطق حكمهم، الذي كان في فترته الأولى عصر ازدهار وعمران، ظهر في بناء القصور والمدارس والأسواق والحمامات وغيرها. وتميزت العمارة المملوكية بتنوع الزخارف، ولاسيما الرنوك التي شاع استخدامها، ولم يُعد الفناء عنصراً أساسياً في جميع المباني المملوكية إذ وجدت أبنية مملوكية من دون فناءات أو ذات فناءات مغطاة، كما في جامع التيروزي والمدرسة الجقمقية بدمشق. وكذلك للأروقة والأواوين، فلم تعد من العناصر التي تميز هذا العصر، وإن استخدمت أحياناً في بعض المنشآت.

اعتمدت العمارة المملوكية على الحجارة المنحوتة جيداً، وعلى تناوب اللونين الأبيض والأسود في حجارة المداميك contrasting stones، وأحياناً اللون الأصفر أو الأحمر، وقد يبدو التناوب اللوني مستخدماً على الواجهة كلها، أو في بعض أجزائها. وظهرت أشكال جديدة من الأقواس، وتطور استعمال القباب ذات الرقاب barrels، خاصة في العنصر الانتقالي للقبة، الذي كان عبارة عن حنية ركنية أو مقرنصات أو مثلثات كروية. كما ظهر أول مرة الشكل الأسطواني للمآذن.

العصر العثماني

قضى العثمانيون على الإمبراطورية البيزنطية عام 857هـ/1453م. وقد تأثرت المباني العثمانية بطراز كنيسة آجيا صوفيا "الحكمة الإلهية"، التي بناها الإمبراطور جوستينيان Justinian في القرن السادس الميلادي. تأثرت العمارة الإسلامية بالأساليب المعمارية المستخدمة في القسطنطينية، وبالفن المعماري السلجوقي. وبعد فتح العثمانيين بلاد الشام عام 922هـ/1516م امتزجت التقاليد المعمارية للعصر المملوكي مع التأثيرات العثمانية. وعلى صعيد العمارة الدينية أصبح الحرم مربع الشكل تغطيه قبة أحادية الرقبة تتخللها نوافذ الإنارة، ومن ثم لم يعد الحرم مقسماً إلى أروقة وأجنحة. ويسبق المصلى رواق مغطى بالقباب يطل على الفناء. أما المآذن فتميزت بالحسن والارتفاع وتأثرت بطراز القسطنطينية كما في مسجد السليمانية والسنانية بدمشق. وظهر بناء التكايا مثل التكية السليمانية.

على صعيد العمارة المدنية شيد العثمانيون القصور والأحياء السكنية. وكانت دار السكن طابقين، السفلي للاستقبال "سلاملك"، والعلوي للنساء "حرملك"، وبرزت الطوابق العلوية على الشارع وأخذ الأتراك عن السوريين القاعة ذات الجدران المزخرفة التي تتوسطها فسقية.

على صعيد القصور أو السرايات فكانت في اسطنبول مبنية وفق التقسيم الثلاثي أو ثلاثية الأجنحة وتتميز بروعة زخارفها. وفي بلاد الشام اتخذ القصر أو الدار الكبيرة التقسيم الثلاثي نفسه، فهناك جناح الأسرة وجناح الضيوف وجناح الخدم (حرملك، سلاملك، خدملك)، وكل جناح له إيوان يطل على فناء مكشوف يتوسطه عنصر مائي وأحواض النباتات إضافة إلى حمام صغير مقسم إلى جواني وبراني ووسطاني. وللقصر أقبية وهناك طابقان، سفلي وعلوي، أما القاعات الكبيرة فكانت ذات أسقف مرتفعة يعادل ارتفاعها الطابقين.

وظهرت عناصر معمارية جديدة كالقوس العثماني وهو قوس مقعر نحو الخارج في جزئه العلوي، والجزء السفلي منه محدب، واستخدم القوس نصف الدائري المجزوء في فتحات النوافذ والأبواب، أي إن فتحته جزء من دائرة، وبقي استخدام المقرنصات شائعاً في التيجان وعقود البوابات وعنصراً انتقالياً في القباب. وقد استخدمت بلاطات القاشاني ذات الموضوعات الزخرفية النباتية عنصراً رئيسياً في إكساء الجدران الداخلية وبعض أجزاء الواجهات فوق الأبواب والنوافذ، وقد غلب عليها اللونان الأزرق والأخضر، كما استخدمت الفسيفساء الرخامية "المشقف" والنوافذ الجصية المعشقة بالزجاج.

وشاع استخدام الأبلق (زخارف ذات أشكال هندسية أو نباتية محفورة على الحجر ومملوءة بملاط جصّي ملون motley) في تزيين الواجهات، كما شاع استخدام الخشب المدهون والمزخرف بالرسوم النباتية والهندسية الملونة، كما في قصر العظم -متحف التقاليد والصناعات الشعبية، أو صور لمدن شهيرة أو مناظر طبيعية في إكساء الجدران والأسقف. وهو تأثير فن الباروك baroque والروكوكو rococo المنتشر في الغرب وهو ما شهدته قصور بلاد الشام ومساكنها (كمكتب عنبر، وبيت المجاهد فخري البارودي) في المرحلة المتأخرة من العصر العثماني.